جنوكورو

رواية خيالية لأحداث تبدو واقعية

جمال الدين علي الحاج



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسـم الكتاب : رواية جنوكورو
المـــــؤلف : جمال الدين علي الحاج
رقــم الإيداع :

الطبعة الثانية ٢٠١٦

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

إهداء....

إلى روح أولئك الذين يموتون في حب الأوطان.
إلى التي منحتني إكسير الحياة.
إلى صنو روحي وقنديلي في عتمة الحياة.

جمال الدين علي الحاج

(وقد أجمع الناس جميعا المؤمنون والملحدون والفاسقون والتائهون علي أن الأخلاق الإنسانية المثلي هي السر الذي يبعث الحياة في القانون والعدالة والعلاقة ما بين الإنسان ووطنه)

د. محمد سعيد رمضان البوطي
رئيس اتحاد علماء بلاد الشام

بح صوتي وأنا ابكي بلادا سرقوها
ثم مروا فوق جرحي و انتظاري
فوق حزني وانكساري
فوق نزفي واحتضاري
سرقوها بالمواثيق الجديدة
يا بلادي
قسمي النيل إذا كنت تريدين انقساما
قسمي الشمس فما زالت تغني للبيوت السمر من نمولي لحلفا
قسمي الليل المغني حين يشدو العطبراوي أنا سوداني
فنفني فيك وجدا وهياما
قسمي قلبي إذا كنت تريدين انقساما
قسمي أحلامنا عدلا وقسطاسا مبينا
قسمي أشواقنا أفراحنا أحزاننا تاريخنا الممتد فينا

شعر.. روضة الحاج

الأحلام تتلاشى

(١)

عاد عبد الله على غير عادته من السوق شارد الذهن مهموما. في طريقه إلي البيت كان منشغلا بسؤال واحد ظل يدور في راسه. وهو كيف يستطيع إخبار زوجته أمونة بمثل هكذا خبر؟

قال محذرا نفسه:

يجب أن لا تعرف. يجب أن أتأكد أولا. ثم أني لو أخبرتها قد تسقط ميتة أو تصاب بالشلل التام. فهي مريضة وتعاني ارتفاعا في ضغط الدم. قال الطبيب الذي ذهبت إليه برفقة ولدها عبادي (يجب أن تبتعد عما يكدّر صفوها وبالخصوص الانفعال الزائد). مط شفتيه وقال:

قبل مجيء الإنجليز لم نكن نعرف مثل هذه الأمراض. كانت حمى (أبو سبعة و أبو فرار و أم دم) هي الأمراض التي نعرفها وتعرفنا، الكي بالنار ومسحوق القرض ومنقوع آيات الله هي خير علاج.

وصل إلى قرار حاسم، وضعه في صميم ذهنه. قال بصوت مسموع على الأقل إلى أذن حماره الذي كان يشاركه المشوار. أشار ملوحا بالسبابة أمام وجهه طاردا كل الوساوس والأفكار الأخرى:

لا. لا. لا. يجب آلا تعرف.

قال بلسان الحذر الذي يريد إبعاد القدر عن الحمى:

لو كان ما سمعته صحيحا لأبرق حاكم مدينة بربر إلى مفتش المركز في مدينة شندي يطلعه بالأمر و لأتصل الأخير على العمدة مباشرة.

هز رأسه عدة مرات لتأكيد وجهة نظره و قال:

الحكومة لها طرقها الخاصة لإيصال مثل هذه الأخبار والتي ليس من بينها الأقاويل التي تدور هنا وهناك. الحكومة تسميها إشاعات.

تذكر حديث عمه الدخري (الإنجليز لن يأتي منهم خير، يخفون أخبار الثورات ويحدثونكم عن الأخبار التي تخدم مصالحهم فقط). همهم في سره:

الله يرحمك يا عمي والله كل حديثك عن الإنجليز كان في محله ولكن من يستمع إلى رجل ثائر هو في نظر الناس رجلاً مغامراً طائش حلم يوماً بنشر دعوة المهدية وبالغزو شمالاً.

ترحم على روح عمه الدخري مرة أخرى وهو يتذكر حديثه وكأنه يحدثهم عن أقدارهم التي يقرأها من اللوح المسطور (لو لم يزرع الإنجليز بذور الفتنة في نفوس الناس لما سقطت المهدية إلى اليوم. غرسوا الفتنة بين سكان البر والبحر ونحن ساعدناهم بالرعاية والسقاية. هكذا كانت دوما طريقتهم في كل مكان، يدخلون إلى جسد الأمة بين العظم واللحم كالسوس ينخرون الجسد من الداخل فيفصلون اللحم عن العظم ويتركون الأمة جسد بلا روح. هذا ما فعلوه في كل بقاع العالم).

ولكن هذا الخبر بالذات هو من صميم مصالحهم، فهم دوما يقولون أن الإنسان في هذا البلد غير قادر على إدارة نفسه فكيف به يستطيع إدارة بلد شاسع مترامي الأطراف كالسودان. أكد على نفسه أكثر وقال:

كلا أنه من مصلحتها ونصف وخمسة.

ساوره الشك مرة أخرى وقال:

ولكن الحكومة الآن في الغالب ليست إنجليزية، فمنذ بضعة شهور شكّل السيد إسماعيل الأزهري حكومة وطنية.

تشكلت تلك الحكومة الجديدة من الحزبين الكبيرين في البلاد، حزب الأمة الذي كان ينادي بالاستقلال التام برعاية السيد عبد الرحمن المهدي ابن الإمام محمد أحمد المهدي مفجر الثورة المهدية و موحد السودان في عصره الحديث و من الحزب الوطني الاتحادي برعاية السيد علي الميرغني زعيم طائفة الختمية والذي كان يدعو للاتحاد مع مصر. فكانا كأسدين متنازعين على جسد الوطن كل يجر في اتجاه. أما بقية الأحزاب والتنظيمات السياسية الأخرى حالها كحال الضباع التي تقتات على الفتات الذي يتساقط من بين فكي الأسدين المتنازعين.

عاد إليه الشك من الناحية الأخرى:

صحيح أن الحكومة تشكلت من أبناء البلد ولكنهم تعلموا في مدارس الإنجليز وبالتأكيد رضعوا من ثديها مع العلم الذي درسوه كل أساليب المكر والخداع.

فقد سمع مثل هذا الهراء كثيرا في الآونة الأخيرة. آخرها من مرشح الدائرة في الانتخابات التي جرت مؤخرا. يوم ذاك اجتمع حشدٌ من الناس أمام الباحة الخارجية للمسجد بعد أن مهدت الأرض بالوابور الزراعي وسويت بالرمل الناعم المرشوش بالماء. خلق كثير من البشر من مختلف القبائل والبطون حضروا، لم تشهد قرية الفكي حسين حشد مثله من قبل ولا أظنها ستشهد مثله في القريب العاجل. حضر كل الناس الأعمى كان يحمل على ظهره المكسر، من قريتهم ومن القرى المجاورة على طول الخط وعلى امتداد ضفتي النيل الشرقية والغربية، جميعهم حضروا أو احضروا بواسطة (اللواري) والشاحنات الكبيرة وعلى ظهور الدواب وكأنه يوم الحشر. حضر وفد الحكومة يتقدمه مأمور المركز والعمدة و مرشح الدائرة وموظفو الدولة الكبار بلباسهم الإفرنجي وياقاتهم البيضاء والتجار والأعيان ورجال الدين بقفاطينهم الواسعة وجباتهم السوداء. حضر رجال الطرق الصوفية و المريدون بالدفوف و(النوبات) والرايات العالية الخضراء والحمراء والصفراء والسوداء وكل الألوان. خطب المأمور الإنجليزي أولا و قال (إن حكومة جلالة الملكة قد قررت منح السودانيين شهادة الميلاد التي بموجبها يستطيعون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فما عادوا في حاجة إلى خدمات الرجل الأبيض الذي تكبد عناء الحضور من أقاصي البحار لتعليم الشعوب كيفية حكم نفسها بنفسها). لم يفهم الحشد من حديثه شيئاً ولكنهم صفقوا ببلاهة.

تلاه العمدة تحدث و قال بعد أن حمد الله كثيرا وأثنى على أفضاله وشكر أنعمه (شكرا لحكومة جلالة الملكة التي حررت البلاد من.). ثم صمت حدق في الوجوه الكالحة لم يجد وجه الدخري من بينها أضاف بصوت أقرب للهمس، ظن أن روح الدخري تنصت للحديث (التي حررت البلاد من ظلم الجهادية). لم يصفق أحد، أعقبه مرشح الدائرة، كان شابا في مقتبل العمر نشأ وتعلم في مدينة أم درمان التي هاجر إليها والده حينما دعاء خليفة المهدي جموع أهل السودان إلى الهجرة للبقعة الطاهرة.

لا يعرف عن القرية و أهلها سوى ذكريات أبيه التي كان يقصها عليه هو و أخوته وهم يتحلقون حول صينية الغداء. نظر في وجوههم لا نظرة النعيم بل نظرة الرجاء المعطون في الشقاء. نظروا في وجهه نظرة اللئيم، تحدث إليهم بإسهاب و قال (أنهم أتوا من صلب هذا الشعب الصابر ويعرفون احتياجاته كما يعرفون خطوط كفوفهم و جوع بطونهم). أرغى و أزبد وهو يعدهم بالخير الوفير. (سوف نعالج مشكلة الهدام حتى لو حفرنا مجرى آخر للنيل). انفعل أكثر حينما سمع تصفيهم الحار وهتافهم المدوي:

(حتى لو ردمنا مجرى النيل بالرمال). التفت إلى رمال الصحراء التي كانت مشدودة على وجه الأرض كغطاء ولحاف.(هذه الرمال كافية لردم النيل لن يأخذ الأمر منا سوى بضعة أيام).

أسهب في أحلامه الوردية و وعوده الجوفاء:

(سوف نمهد الطرق ونبني المستشفيات والمدارس لتعليم الفتيات. سوف نقوم بشق الترع لكي تسقي الحقول ونمدد أعمدة الإنارة في كل القرى والفرقان، لن يكون هنالك فقر ولا مرض ولا جهل بعد اليوم). حدقوا فيه ببلاهة. هتفوا ببلاهة وصفقوا ببلاهة.

هتف أحدهم من آخر الصف، كان أعرابيا رث الثياب كث الشعر ضئيل الجسد، جلده كان متجعد كأنه جلد ماعز مدبوغ يابس مرمي بالطريق:

نريد معاول لكي نحفر بئرا جديدا، بدلا عن تلك التي تعطل.

علق المرشح وهو مزهوا بتلبية طلب أحد الرعايا في الحال:

(وسوف نحفر الآبار والحفائر في كل الصحراء).

وعدهم المرشح للانتخابات بنعيم الجنة العالية أن يكون تحت أقدامهم، مشى أبعد من ذلك حينما وعدهم بشمس الحرية الساطعة التي سوف تشرق عليهم طوال حياتهم وحياة أحفادهم بلا غروب إن هم صوتوا له في الانتخابات القادمة، صدقوه كنبي أو كرائد فالرائد لا يكذب أهله! أعينهم كانت تنظر إلى جلده الناعم وقصة شعره (الكاري) و ياقة قميصه الأبيض. ويسألون دواخلهم:

(هو لا يشبهنا في شيء بل هو صورة بالأسود من السيد الإنجليزي الأبيض. فكيف يتحدث باسمنا؟! ولماذا لا يتركنا نتحدث مباشرة إلى مْن بيده القرار؟).

عيونه كانت معلقة على بصمة أصابعهم الخشنة. انفض الحشد. يوم الاقتراع بصموا ببلاهة على الفانوس رمز مرشحهم الفائز ومن يومها لم يروا مرشحهم كما لم يسمعوا له صوتا. مضى عام ونصف على ذلك الحشد.

قرر عبد الله أن لا يعول كثيرا على موظفي الدولة، عليه أن يستعين بشبكة أخباره من العمال والتجار الذين يعملون بين الشمال والجنوب.

هؤلاء من يمكنك الاعتماد عليهم.

هكذا قال في نفسه:

هم لا لهم مصلحة في إخفاء المعلومات والأخبار ينقلونها بحذافيرها مهما كانت. من قبل نقلوا لنا أخبار ثورة النوير وثورة اللواء الأبيض.

ضحك و هو يقول:

الداية أم الخير لو كانت حية لكانت أتت بالخبر اليقين. تلك المرأة الدهرية وكالة أنباء متجولة.

استغفر الله العظيم.

حينما بدت تلوح له من بعيد بيوت القرية قال كمن تذكر شيئا مهما نسيه:

علي بالحذر من أثنين. صديقي حسان وبنتي السارة.

ابتسم ابتسامة فارغة، بلا أي تعبير ارتسم على وجهه من خلالها وقال:

السارة مقدور عليها، فزوجها يعمل في مكتب البريد والبرق ومن المؤكد سوف تقع في يده برقية أو رسالة تأتي من هنا أو هناك و يكون بين طياتها ذلك الخبر الشؤم.

فكر قليلا وقال:

سوف أخبر زوجها بعدم أخبارها بأي شيء يرد بهذا الخصوص. أما صديقي حسان فالله وحده يستر علينا من لسانه الفالت. فهو في دكانه تأتيه الأخبار طازجة وكأنها تهبط عليه من السماء.

كان قد وصل إلى باب الدار أكد على نفسه وحذرها:

نعم. نعم. لا ينبغي لزوجتي أمونة أن تعرف. على الأقل الآن. ومحاسن يا ألطاف الله.

فقد نسيتها تماما.

كانت محاسن زوجة ولده عبادي فقد تزوجا قبل ثلاثة شهور وتركها عروس وسافر إلى المجهول.

مسح دمعة عجولة طفرت من عينيه وقال والعبرة تكاد تسد حلقه:

هذه بالذات يجب أن لا تعرف بالخبر لا نريدها أن تجهض الجنين الذي بدأ يتخلق داخل رحمها. هو العلقة الوحيدة التي سوف تذكرنا به إن لم.....

ترقرقت الدموع في عينيه. من يستطيع حبس دمعة المغبون؟ مسح دموعه التي سالت بطرف عمامته ورسم لوحة الجد على وجهه الشاحب وهو يهم بالدخول وقال:

لا. لا . لا. يجب أن لا أطلعهن بالأمر.

فتح الباب و دلف للداخل.

(٢)

أنزل الأحمال عن ظهر الحمار بإهمال. لم يلق بالا إلى صيحات أغنامه التي مدت أعناقها من فوق حاجز الزريبة وهي تمني نفسها بحزمة من البرسيم الأخضر وجبتها المفضلة حتى لو كانت بعد منتصف النهار ولا إلى يد صديقه حسان الملوحة بالسلام والذي كان يجلس أمام دكانه يتصيد الزبائن والأخبار. فأفضل من يأتيك بالأخبار وهي طازجة، هم القادمون من السوق. أولئك دوما يعودون من سوق القرية محملين لا بالمتاع وحده و إنما بجميع الأخبار المفرح والحزين، حتى أخبار المدن الكبيرة يأتي بها العائدون من سفر بعيد، يحملها في صدورهم السواقين ومساعدوهم على ظهور (اللواري) و الشاحنات و البصات السفرية مثلما يحملون البضائع والركاب. فالسوق هنا يا سادتي هو موسم للحج يعود الحاج منه محملا بكل الخير كما يذهب إليه محملا بالوصايا أخفها وزنا الدعاء عند ضريح الشيخ حسين. عاد حسان إلى سريره حيث كان مضجعا وهو يتمتم:

لعل المانع خير. الذي منع صديقي عبد الله من رد السلام.

كانت زوجته أمونة تجلس على طرف السرير داخل العريش الذي وقف يظلل المطبخ من حرارة النار وهي منهمكة في تقليب حبيبات البن على المقلاة التي كان يتصاعد منها البخار. رائحة البن المحمص تجذب أنف مدمن الكيف ويسيل لعابه كالمدخن الذي استنشق رائحة السيجار في نهار رمضان. في الأيام العادية كان عبد الله يجلس بجوارها يتنشق عبير البن المحمص، يثرثران قليلا وهما يرتشفان القهوة، عن أحوال السوق و أخبار القرية والقرى المجاورة ومن ثم يدخل إلى غرفته لكي يبدل ملابسه و يتناول قسطا من الراحة. ذلك اليوم لم يجلس بجوارها على السرير كما جرت العادة. كانت قواه خائرة و نظراته حائرة و فكره مشغولا، لدرجة أنه نسي الأغراض التي جلبها من السوق عند عتبة الدار. لعن الشيطان وقفر عائدا يحملها بيده كأنه يتوكأ عليها حتى لا يسقط على الأرض فما يحمله صدره اليوم أثقل من أن تحمله الجبال الراسيات والسموات السبع والأراضين. حمل همه و دخل مباشرة إلى غرفته. هذه المرة الأخبار التي حملتها الرياح من جنوب البلاد لا تسر العدو ولا الصديق

وتبشر بالشر. الرياح الآتية من الجنوب دوما كانت تحرك مياه النيل شمالاً والنيل يأتي بالخير الوفير و تسوق أمامها جبالا من السحب. من خط الاستواء شمال أوغندا و من هضاب أثيوبيا لكي تفرغ حمولتها من الأمطار في أرض الشمال. ولكن هذه المرة الريح عاصفة اقتلعت قلبه من بين ضلوعه وزلزلت كيانه. البركان الكامن في صدور الجنوبيين منذ أمد بعيد فار و تصاعد بخاره يريد الانفجار.

لحقت به زوجته أمونة إلى الغرفة، وضعت القهوة أمامه. أعرضت عيونه عنها مدعية النوم. سألته وهي تحاول تثبيت جلبابه في مكانه على السلك المشدود بالجدار:

اشتم رائحة ولدي عبادي على ملابسك؟. هل حمل العائدون من بقعة المهدي معهم أي أثر أو خبر من وحيدي.؟

جلست بجواره وهي ترفع يديها ولسانها يتمتم بالدعاء. ساد الغرفة صمت أطبق على الهواء، لم تفلح سموم النهار بتخليص هواء بارد من قبضة هجير الصيف برغم مروحة السعف التي لوحتها أمونة أمام وجهه الشاحب المتصبب عرقا. وحده صوت رشف القهوة حرك الهواء الساخن داخل جوفه، لم يشاء إخافة قلبها الذي كان يتقافز داخل صدرها و يتطاول ليرى ما تخفي دواخله.

يعرف قلب الأم وجواسيسه الذين يدبون في المكان. حفظ الحلم الذي أرّق نومها قبل ليلتين. تلك الليلة فزعت في نومها، رأت بعين النائم ولدها عبادي يصعد هامة نخلة عالية وبيده منجل، حينما هم بقطع سبيط التمر فإذا بموجة عالية بداخلها دوامة لا متناهية من الأمواج، التفت حول جزع النخلة اقتلعت النخلة وبناتها من جذورها وغاصت في النيل. هدأ من روعها قائلا:

إنه الهدام. غضب النيل من قيد الجرف وما هي إلا أضغاث أحلام.

نامت على صدره تلك الليلة بعد ما قرأ على رأسها آية الكرسي والمعوزتين.

قالت أمونة وهي تطرد من قلبها الوساوس والظنون:

ولدي عبادي ضوء عيوني الذي يشع نوره في عتمة الظلام، وكأتي حينما يطول الطريق ويقل الرفيق، غطائي في ليالي الشتاء الباردة وألم مخاضي الذي تمخض بصرخة الحياة.

كانت كلماتها صادقة نقية كأنها تغسل الكلام قبل خروجه من جوفها، حاول عبد الله جاهدا إخفاء دموعه بكم جلبابه دون جدوى. مسك آلة توزيع الهواء من يدها، قالت دموعه مخاطبة عيونها الوجلة:

إن شبكة أخباره التي ألقى بها في عرض السوق عادت إليه فارغة لا تحمل صيدا من عبادي، سوى ذهابه مع الجيش في مهمة رسمية إلي جنوب البلاد.

حاول تهدئة روعها، خرج صوته مبحوحا تكاد تخنقه العبرات:

لعله بالقرب من عمه الطاهر.

هي لا تعرف عن الجنوب و أهله الكثير، مجرد حديث كانت تسمعه يدور هنا وهناك. في مخيلتها أن الجنوب عبارة عن غابة واسعة كثيفة الأشجار تعيش فيها الحيوانات المفترسة بجانب البشر، الذين يعيشون حياة الإنسان الأول. في صباها كانت تستمع إلي نقاشات أبيها الدخري مع العمدة وعمها الخزين. كان أبوها يدافع عن الجنوب قائلا:

لا تتحدثا عن الجنوب هكذا. ستعرفان قيمة الجنوب يوما ما.

كان العمدة يرد على حديثه بالقول:

الجنوب كشعب مختلف عنا في كل شيء، اللغة واللون والعادات والتقاليد حتى الدين فهم لا يدينون بديننا و إنما لهم دياناتهم الخاصة.

وهل كان لون الانجليز أسمرا؟.

التفت الدخري إلى العمدة الذي بدأ منزعجا. يعرف ما سيقوله ثائر جهادي ومحارب قديم حلم يوما بالغزو شمالا مع جيش عبد الرحمن ود النجومي

وقال:

وهل كان الإنجليز مسلمين؟!

يستطرد الدخري غير آبه بنظرات العمدة وشقيقه الخزين فقد كانت تربطهما بالإنجليز مصالح ممتدة:

كل الخير يأتي من الجنوب. وأنتما بالذات تعرفان ذلك جيدا. النيل شريان الحياة يتدفق من الجنوب. السحب التي تحمل في جوفها الماء، لن تصل إلى سماء الشمال إن لم تحركها رياح الجنوب.

أشار بالمسبحة التي كانت لا تفارق أصابع يده إلا لطيها حلقات ولبسها كسوار حول المعصم وقال:

أنت يا حضرة العمدة. كل العز الذي تتقلب في نعيمه صباح مساء هو من ريع تجارتك الرابحة مع الجنوب.

احتد صوته وهو يقول:

لعلك نسيت كيف كنت تغش و أنت تبيعهم القفل والطبل كل واحد على حدة؟ أتراني كنت غافلا عن القوافل التي كانت تأتيك محملة بالجلود والعاج هذا بخلاف المراكب الكبيرة التي كانت تحمل في جوفها الأخشاب والبشر. وكل ذلك مقابل مقايضة رخيصة. بالله عليكما حفنة من التمر والذرة و في بعض الأحيان حبات خرز يمكنك شرائها من أقرب دكان بثمن بخس، تقايضونها على أنها من أجود أنواع العقيق اليمني والمرجان!.

انفعل أكثر وهو يقول:

لا أريد التحدث عن تجارة جدك العمدة الكبير فلا تجوز على الأموات إلا الرحمة. اتركا عنكما كل ذلك جانبا و قولا لي بالله عليكما من الذي يعمل عندكما بالمزارع والحقول بهمة عالية دون أن تمتد يد واحد منهم لشيء لا يخصه. أليسوا هم من عمال الجنوب؟ ومن الذي يخدم بداركما و تأتمناه على عرضكما وولدكما؟. أليس هم من الجنوبيين.

لم يترك الدخري نصيب شقيقه الخزين الذي كان يستمع بامتعاض. التفت إليه

وقال:

و أنت يا شقيقي العزيز، لم يعرف المال طريقه إلى خزائنك إلا بعد ما أنهرت مراكبك جنوبا.

ضحك باستهزاء وأضاف:

حتى الغلام لم تفلح في إنجابه إلا من رحم تلك الجارية الجنوبية.

كانت كلماته تخرج كالرصاص تسقط على جسديهما، فتسكت ألسنتهما التي ما فتئت تتحدث عن الجنوب و إنسانه بكل قبيح. تمنيا في سرهما لو يصمت قليلا أو غيّر مجرى الحديث. ولكن هيهات لثائر مثله. تخلى عن سجادة الخلافة لكي ينصر دعوة المهدية التي بفضلها تحررت البلاد.

أسترسل في الحديث وقال:

رياح الشمال عادة لا تأتي بالخير. فهي تسفو فوق رؤوسنا رمال الصحراء.

عد على أصابعه وهو يقول:

من الشمال أتى إلينا الأتراك و تعلمان جيدا من هم الأتراك وما الذي فعلوه بإنسان هذه البلاد. و من خلفهم أتى الإنجليز وإن كنتما تريان أن الخير معقود على نواصي خيولهم، فأنا لا أراهم سوى غزاه طامعين في خيرات هذه البلاد. الإنجليز يا سادة يا كرام، يا من تخطبون ودهم وترونهم جنودا للخلاص، لم يمدوا خطوط السكك الحديدية جنوبا إلا لنهب خيرات البلاد و إرسالها لقمة سائغة شمالا، إلى أقاصي البحار. و فتحوا المدارس لكي يتعلم أبناؤنا إطاعة الأوامر التي تصدر بلغتهم.

قال العمدة بتهكم واضح:

يكفينا أن الإسلام ذلك الدين الخاتم أتى إلينا من الشمال.

مسح العمدة على شاربه ظن أنه ألقم الدخري حجرا كبيرا سد به حلقه فمنعه من الكلام. نسى أن الدخري رجل عالم ملما بتفسير الحديث والفقه و يعرف السيرة جيدا وأخبار القرون الأولى. فقد تتلمذ على يد الشيخ المجذوب الكبير.

ضحك الدخري باستهزاء وقال:

لا أظنك تستمع إلى تلك الترهات التي تتحدث عن دخول الإسلام من الشمال. قناعتي الراسخة أن الإسلام دخل هذه البلاد منذ الهجرة الأولى التي حدثت في صدر الإسلام. بل إن النجاشي ملك الحبشة ذات نفسه قد امن بالدين الجديد و رجل مثلك كثير الإسفار لا تخفى عليه خافية، وقد حججت واعتمرت وتعلم جيدا أن المسافر على البحر من أرض الحجاز لابد وأن تحط سفنه وتنزل أشرعتها في الشط المقابل لميناء جدة. وحينها يجد نفسه في أرض السودان وليس الحبشة.

تدخل الخزين محاولا إنهاء الجدل وقال:

لا تتعب نفسك يا حضرة العمدة فما زال أخي الدخري يحلم بعودة المهدية. بل ما زال يمني نفسه بوصول جيش ود النجومي وجنود الجهادية بتلك الثياب البالية المرقعة التي لا تستر الجسد ولا تقي من البرد إلى أقصى الشمال حيث تنام الملكة فكتوريا وتصحو وما تزال الشمس معلقة في سماء مملكتها الممتدة.

قال الحزين كلماته الأخيرة وانفجر هو والعمدة في نوبة من الضحك.

انتفض الدخري كمن لسعته نار الثورة و قال:

ومالها الثورة المهدية؟ أليست هي الثورة الوحيدة التي انطلقت في القرن العشرين، وحدت البلاد و حررت أمثالك من ذل الأتراك؟ المهدية يا سادتي هي الزوجة الصالحة التي صانت شرف الأمة وهي الأم الودود الولود التي أنجبت وسوف تنجب من رحمها رجالا قادرين على حمل الراية التي سقطت في موقعة كرري.

قال بشيء من الضيق:

المهدية لم تسقط. إنما من سقط هو أمثالكما من الذين خلطوا الدين بالعجين. أولئك الذين عادوا في ركاب أسيادهم الإنجليز يهشون عنهم البعوض والذباب بمراوح صنعوا حواملها من خيزران الرمح المكسور.

نفض الخزين طرف ثوبه كالذي عضته نملة و قام واقفا و قال:

لا فائدة من الحديث معك. ضيعنا النهار كله في حديث لا طائل منه.

نعم. لا فائدة ترجى منكما.

همهم الدخري كمن يلوك الهواء.

مولاي المهدي ذات نفسه لم يجد النصرة إلا حينما ارتحل جنوبا إلى قدير. تذكرا حديثي هذا جيدا ستندمان يوما على ما فعلتماه بالجنوب.

من هذه النقاشات التي كانت تسمعها بين الحين والأخر تكونت عندها فكرة خاصة عن الجنوب. لذا ارتبط الجنوب بذهنها بكل الخير، لم يدر بخلدها يوما أن بعض الشر ينطوي تحت الخير كما تنطوي حية رقطاء بين طيات اللحاف الدافئ.

أخفى عبد الله عنها السّر الكبير، القدر الذي بدأ يغلي بالجنوب وأشعلت أواره قداحة الإنجليز برياح الشمال. سرح بخياله إلى ذلك اليوم الذي وضعت فيه أمونة ولدهما الوحيد عبادي. لا يزال يذكر ما حدث ذلك اليوم جيدا وكأنه يشاهد في شريط حياته يمر من أمام عينيه.

(٣)

الصلاة خير من النوم ... الصلاة خير من النوم... الصلاة خير من النوم

أستيقظ عبد الله باكرا على صوت نداء الحق ينادي للصلاة، صلى الفجر في مسجد جده الفكي حسين الذي لا يبعد كثيرا عن البيت، فجميع بيوت القرية تجمعت وتراصت حول المسجد محتضنة إياه في وسطها كأنه شيخ وقور يعطي تلامذته دروسا في التفسير والفقه.

كانت نسمات الصباح تهب حامله معها رائحة النيل (الدميرة) ودخان حريق الحطب الذي بدأ يتصاعد من مطابخ القرية إيذانا ببداية يوم جديد. في طريق عودته من المسجد التقى حسان وجاد الله وخلفهما كان يعتب بخيت برجل عرجاء. فقد أصيب وهو صغير بمرض أقعده في السرير ومنعه من الحركة فوضع البصير حمد كيات ثلاث على ظهره ومثلهم على كل رجل فنهض وهو يمشي مكبا لأسفل وقصر في رجله اليسار. كانوا يتحدثون عن فيضان النيل (التساب) وكيف أن شباب القرية قد سهروا طوال الليل يراقبون النيل حتى لا ينشب مياهه في قلب سدهم المنيع فيجعله هباءً و يحيل قريتهم إلى ركام. في الليلة الفائتة عمد النيل إلى نقطة ضعفهم وجمع كل الموج عند فريق أولاد عوض الله فقفز من فوقه كأمهر فارس يمتطي جواد، حدث ذلك قبل أن يجتمع أهل القرية و ينجحوا في تكبيل حركة الموج وقفزاته العالية بسد ترابي منيع.

تحدث بخيت، خرجت كلماته قوية من بين أنفاسه المتصاعدة كأنفاس المصدور، فقد كان يسعى يحاول اللحاق بالبقية وقال:

منذ اليوم الأول الذي سكنوا فيه معنا في هذه القرية، فقد كنت أعلم أن شغلهم نيئ وأيديهم ناعمة كالنساء وجلدهم حلو، لو ما علاقة النسب حرم ما يسكنوا جوارنا.

همهم جاد الله بكلام مبهم ولكن إيماءته تدل على أنه لا يرضى حديث بخيت فأمه كانت من فريق أولاد عوض الله.

حسم حسان الأمر وقال:

يا ناس استهدوا بالله الوقت ما زال مبكرا للعراك.

التفت ناحية بخيت وقال:

بخيت كلامك أعوج، هكذا دوما حال النيل من قديم الأزمان، في شهور الفيضان من كل عام يتمرد النيل على قيد الجرف ويندفع كالمجنون الذي فك من القيد في كل اتجاه، لكنه يأتي بالخير الوفير، علينا أن نحمد الله على نعمه.

إلا عبد الله فقد كان شارد الذهن بعدما لعبت برأسه الوساوس والظنون. كيف لا وقد ترك زوجته أمونة في البيت يغالبها ألم المخاض. فهذا شهرها وتعدت أيامها وتأخرت في الوضع و برغم من أنها وضعت أربعة مرات من قبل و لكن هذه المرة الحمل ثقيل و مختلف. فقد تورمت قدميها وثقل جسدها ولم تقدر على الحركة إلا بصعوبة بالغة.

(٤)

كل دلف إلى زقاق يؤدي به إلى بيته فكل بيوت القرية تتشابه في رسمها وبنائها فغالبية بيوت القرية مبنية من الطين اللبن المغطى من الخارج بخليط من تبن الفول المصري وروث الأنعام. وجلها بنيت على يد عكاشة ومجموعته. ذلك القادم من ديار المناصير. فقد كانت يديه كبيرة، عريضة و خشنة بها شقوق كأنها قدم و لكنها كانت ناعمة على الطين يقوم بتطويعه وتشكيله في شكل أطواف طوفا فوق طوف. قبل مجيئه إلى القرية كانت بيوت القرية مجموعة من (القطاطي و العشش) المتداخلة لا يسترها من أشعة الشمس و زخات المطر سوى سعف النخيل و سيقان نبات الحلفا. كان عكاشة من عمال البناء المهرة الذين كانوا يجوبون القرى لبناء المنازل والمساجد. ما أن يحط رحاله في قرية حتى تتحول البيوت فيها في غضون أيام إلى نسخة متشابهة، أول من استخدمه في القرية العمدة، كان ذلك لبناء داره الجديدة للزوجة الثالثة، تلاه الخزين، شيد دار لزوجته المصرية الجديدة ومخزن كبير بدلا عن تلك القطاطي التي تتعرض فيها بضاعته للمطر والنمل الأبيض، ثم ما لبث أن انتشر الأمر كالعدوى في بيوت القرية

وكأن عكاشة كان يعلم برابط الدم بين سكان القرية فقد جعل كل بيوت القرية تتداخل مع بعضها، تفصل بينها أزقه متعرجة تجعلها كمتاهة من الأوردة والشرايين تصل البيوت ببعضها مما يجعلها كالبيت الواحد.

بعد برهه من الزمن، عاد كل واحد منهم يحمل في يده براد شاي الصباح إلى الديوان و الديوان يا سادتي في تلك الأنحاء ليس ذلك البناء العالي الواسع الذي يكون منزويا في طرف الدار مشرعة دوما أبوابة لعابر السبيل. لا. هو بمثابة اجتماع عائلي صباحي تقليد يومي و لكل حي أو فريق أو عائلة ديوانهم الخاص الذي يجتمعون فيه. حيث تناقش أخبار القرية والقرى المجاورة وتعرض فيه خطة العمل وبرنامج اليوم وتقضى فيه الحاجات وكلها أخبار متشابهه مثلما يتشابه كل شيء في قرية الفكي الحسين.

سرح عبد الله بخياله بعيدا، كيف أنه تزوج بنت عمه أمونة فهي كانت أصغر أخواتها وأكثرهم جمالا. وكيف أنها غمرته بحبها وحنانها طيلة السنوات الماضية، دون أن ترفع عينيها في وجهه. خفق قلبه خائفا حزينا وهو يحدث نفسه:

ماذا لو تعثرت أمونة في الوضع واحتاجت السفر إلى مدينة شندي أو بقعة المهدي أمدرمان. هل تستطيع الوصول؟ أم....

استعاذ من الشيطان، فعاد إليه عن شماله وهو يسأله:

ثم أين المال الكافي ؟ الأرض في هذه الأيام، بور زرعها النيل ماء وحصادها طمي وطين والتمر تبقي على حصاده شهر والبقر حملهن بعيد والحال واقف.

حدث نفسه بصوت مسموع:

لا يوجد غير تقاوي الفول والفاصوليا.

حك رأسه ورفع عيونه مخاطبا السماء:

عوضنا على الله ليذهب كل الموسم الزراعي فدا أمونة.

أرجعته إلى المجلس كلمات عمه الدخري حينما قطع بصوته الحاد حبل الهم الذي تمدد وطال قائلا:

عبد الله يا ولدي غنم إبليس لا لهن عدد ولا فيهن حليب فلا تسرح. كيف أصبحت أمونه؟.

عدّل عبد الله وضع طاقيته على مقدمة رأسه كمن يستجدي الجواب من ذاكرته البعيدة وقال:

الحمد لله يا عمي و لكن ليلة البارحة هرب النوم من عيونها كالذي يعاني من ألم الضرس، قضت ليلتها ساهرة تتوجع.

حينما شاهد عبد الله علامات القلق بادية على وجه عمه الدخري قال مطمئنا:

لا يوجد ما يدعو للقلق يا عمي فإن الداية أم الخير معها من أمس و قالت (قد تضع المولود في أي وقت).

رشف الدخري رشفة طويلة لها صوت من الشاي، وضع الكوب على الطاولة الموضوعة أمامه وقال وقد بدأ صوته هادئا مطمئنا:

يبدو أن حملها مختلف هذه المرة، لا تقلق هكذا هن النساء يتألمن في المخاض كثيرا وبالنهاية ينزل الجنين. أمونة بنتي و أنا أعرفها جيدا فهي قوية وقادرة على تحمل ألم المخاض. غدا بأمر الله تنجب الولد الذي طالما حلمتما به، ولو أني لا أرى أي فرق بين الولد والبنت، كله نعمة من عند الله، وما على العبد إلا الحمد و الشكر والرضا بالمقسوم.

استطرد قائلا وقد اكتست نبرة صوته بالوقار:

العبد يا ولدي لا يملك من أمره شيئا، هنالك من يتمنى سماع صرخة الحياة تنطلق من صدر مولود. ولا يسمعها أبدا. عليكما حمد الله وشكر فضله على ما رزقكم. نعم الله على عباده كثيرة ولكن قليل من عباده الشكور. أنا مثلا لم يرزقن الله سوى بنات وكل واحدة منهن يمكن أن تسد فرجة فارس قبيلة. لا نملك غير التضرع إلي الله.

كان الدخري يتحدث بلسان شيخ وقور وقلبه يكاد ينفطر على أصغر بناته.

همهم الدخري بآيات وأدعيه و ختمها قائلا:

يا حلال. يا حلال.

ردد الجميع من خلفه كمن يتبعون إمامهم في صلاتهم الجهيرة بعد فاتحة الكتاب بصوت واحد:

آمين.

الدخري ود الحسين سمي جده الفكي الدخري الكبير وكبير عائلة (الحسيناب)، ترك خلافة الخلوة لأخيه الصغير وتفرغ للجهاد مع جيوش الأمير ود النجومي في زحفها شمالا. كان حلم الفتى الثائر وقتها نشر دعوة المهدية عبر أرض الكنانة إلى الأستانة ومنها إلى عموم أوربا، تبع الحلم حتى سقطت الراية في توشكي وانكسر الجيش، بقيت الفكرة في رأسه حلم يراوده في اليقظة والمنام، أسر الفتى الثائر في تلك المعركة، عاد من الأسر برجل واحدة وقلب مليء بالأحزان وبعض من فكرة المهدية تراوده بين الحين والآخر. تزوج بنت خاله ورزق منها أربعة بنات أصغرهم كانت أمونة زوجة عبد الله.

انتصب الدخري واقفا بعد أن أفرغ آخر كوب شاي في جوفه وأظنه الرابع. وضع الكوب على المنضدة محدثا صوتا عاليا دليلا على تمام الكيف رفع عصاة السلم من تحت السرير وهو يتمتم:

يا الله يا حلال.

تماما كما يفعل قاضي القضاة في محكمة مدينة بربر إيذانا بنهاية الجلسة إلى جلسه أخرى ربما على الغداء أو العشاء.

(٥)

في فناء الدار توسدت الداية أم الخير ثوبها كان النوم يغازل عيونها فتصده حينا وتسقط في شباكه كل الحين فقد ظلت ساهرة طوال الليل تترقب المولود. كانت أمرأة مكتنزة الجسم خطت يد أحدهم ثلاث (فصدات) بإهمال على خديها وسودت شفتيها، يبدو أنها أصابت في صباها مسحة من الجمال. كانت تمشط شعرها للوراء. كان شعرها خليطا من اللونين الأسود والأحمر وإن كان أغلبه أبيض تتدلى منه ضفيرتان صغيرتان من الأمام. لا يعرف لها أقارب في القرية يقال أن زوجها علي بن عم الدخري أتى بها من ديار الكبابيش. فقد كان تاجرا للإبل بين مصر والسودان يجلب بضاعته من ديار الكبابيش ويبيعها في أسوان. تزوجها لتوطيد علاقاته التجارية. المال يحتاج إلى إخوان وأخوال لحمايته. توفي زوجها سنة الحمي وترك لها الخير ولدها الوحيد الذي ذهب مع الجهادية وغاب بالسنين. اكتسبت من حياة البادية ونوائب الدهر قوة وشكيمة وفطنة لا تخطئها العين، فهي قابلة وبصيرة ومفسرة أحلام وضاربة حظ وبائعة متجولة ووكالة أنباء. وفوق ذلك كانت تحرث أرضها التي ورثتها عن زوجها وتبذر بذورها بنفسها. كانت تجدف المركب لوحدها وفي بعض المرات تعبر النيل سباحه ليلا، وتلبس سروالا طويلا كالرجال حتى أنه نبت لها شعر أسفل ذقنها فشل أن يصبح لحيه. كانت امرأة حازمة و قوية يهابها الرجال وقد رأى النور على يديها نصف إنسان القرية من الجنسين.

قالت الداية أم الخير بعد أن رشفت رشفة طويلة لها صوت من فنجال القهوة البكري الذي أعدته زينب شقيقة أمونه الكبرى:

أقسم بشيخي جناها بعيد.

كالعادة، كانت تقسم بشيخها الذي لا يعرف له اسم. استطردت تأكيدا لحديثها السابق قائلة:

أذكر يوم وضعت أم الحسن عبد الله حيي الدنيا، ثلاثة أيام بلياليها قضتها تتوجع إلا أن علقتها على الحبل المتدلي من السقف.

ضحكت فبانت أسنانها المصفرة بفعل (التمباك) وقالت:

بعدها خرج من بطنها يصرخ ويضرب الهواء بيديه ورجليه وكأنه يلومني على تأخيره كل هذا الوقت.

وضعت الفنجان الفارغ علي الطاولة وأضافت بامتعاض:

الولد سر أبيه.

قالت زينب وهي تصب الفنجال الثاني لأم الخير فقد قضت علي الأول برشفتين.

يا جدي الفكي حسين ويا الصلاح رجال الدين (تتبينو وتتباينو وتحلوها).

كعادتهم دوما. رجال ونساء ما زالوا يبتغون الوسيلة إلى الله بالأولياء الصالحين ظنا بأن أعمالهم الصالحة قد تبطئ بهم وليس كل الظن إثم.

(٦)

داخل الغرفة الطينية كانت أمونة تستلقي على سريرها المصنوع من خشب المهوقني بأرجله المخروطية العالية المدببة بالأعلى مع استدارة مخروطية نازلة لأسفل و نقوش محفورة على جانبيه. جلب إليها من سوق بقعة المهدي (أم درمان) مع صندوق خشبي عليه حاجيات زواجها.

كانت عيونها معلقة إلى سقف الغرفة تنشر في أخشاب أشجار الدوم المصفوفة بعناية. بعد أن شكلتها يد خير الله ومنشاره إلى ألواح خشبية سمراء. ما عرفت أشجار الحراز والسنط في تلك الأنحاء أمهر من يديه في صناعة المراكب والسواقي حتى أنه صنع مركبا كبيرة كأنها سفينة إغريقية لها اثنتا عشر شراعا وثمانية مجاديف أربعة من كل جانب وكان طولها حوالي ثلاثون رجلا. صنعها بطلب من حاكم مدينة بربر الإنجليزي. يومها استخدم خير الله ثلاثون رجلا لقطع غابة كاملة من شجر الحراز وثلثها من شجر السنط. يومئذ كانت أمونة بنت سبع سنين كانت ترعى غنمها بالقرب من غابة السنط. فقد كانت غنمها تعشق زهرة شجرة السنط بلونها الأصفر الفاقع وطعمها الحالي ورائحتها العطرة بالخصوص عندما يغسلها و يعطرها رذاذ المطر.

لكم أحبت أمونة ذلك المكان. كيف لا وهي كانت تخلد لراحة ظليلة تلهو بأغصان السنط، تجذبها بيدها لأسفل لتتساقط زهورها الصفراء فتحملها الأغصان محلقة بها عاليا كأرجوحة في مدينة ملاهي للأطفال. تتبعثر خصلات شعرها المسدل في الهواء قبل أن يجمعها وجه ملائكي ينبض بالحياة. تتجمع الأغنام من حولها ترتع فتشبع. في ذلك المكان كانت أمونة تلتقي بابن عمها عبد الله توأم روحها الذي رأى الدنيا قبلها بأربع سنين. كانا أصغر أخواتهما فعهد إليهما مهمة رعي الأغنام. لم تعرف أمونة ساعد حام ولا قلب حان غير ساعده القوي وقلبه الكبير فكان هو أحلامها الصغيرة ودنيتها الكبيرة في مقبل الأيام.

وهي في حالها تلك هبوطا وصعودا مع ذلك الغصن الذي ظل يمطر عليها وعلى أغنامها زهورا صفراء، رأت ذلك الفلك الضخم يرتفع لأعلى كأنه سور ضخم من الأخشاب المصمتة يشق صدر النيل من أسفل لأعلى كالذي يفصل ثوبا من الماء. قالت لنفسها:

إنها مركب خير الله.

فقد امتلأت المركب عن أخرها بحجارة ضخمه تشكلت على صورة كباش لها أجساد أناس وأجساد أناس لها رؤوس أسود. وأعمدة حجرية ضخمة مستديرة كأنها مسلات عملاقة منقوش عليها صور طيور و وحيوانات وحشية يركض خلفها رجل يمتطي حصان يحمل في يده رمح قناته طويلة وسنته مدببة وخطوط متقاطعة وأخرى دائرية ومستقيمة و حيوانات لها أشكال غريبة، أفاعي وحيات لها رؤوس قطط و طير حمام له رأس رجل ويحمل على كتفه قلم كبير ومجموعة من التماثيل بأحجام مختلفة وكلها واقفة و أياديها المقبوضة الكف مضمومة إلى جسدها وكأنها خاشعة في صلاة إلى الأبد. لم يفهم عقلها الصغير شيئا. كانت أمونة تشاهد باستمرار مركب جاد السيد الجسر الذي يربط بين الضفتين وهي تحمل جوالات التمر و المحصول و الدواب والناس، لكن لا تحمل في جوفها الحجارة!

صوت عبد الله وحده أنار ظلام عقلها الصغير حينما قال لها:

سمعت من رجال القرية وهم مجتمعون على شاي الصباح. كانوا يتحدثون عن نقل حجارة (العنج) إلى خرطوم الترك بغرض بناء سراي جديد للحاكم الانجليزي بدلا عن تلك التي دكتها جيوش الجهادية يوم فتحت الخرطوم وقتل الباشا غوردون.

دون جدوى حاولت أمونة تثبيت عقلها وشعرها المبعثر في المكان. قالت:

آي والله كأنها جلبت من بيوت (العنج).

أضافت قائلة:

أبي دوما كان يقول إن الإنجليز كفار أنجاس ويقول أيضا أنهم لم يأتوا إلى البلاد إلا لنشر الظلم والفساد حتى الحجارة لم تسلم فعبثت بها أياديهم الملطخة بالدماء.

التفتت إلى عبد الله وقالت في حيرة:

سمعت أبي ذات مرة يقول لأمي إنها ليست مجرد حجارة إنما هي آثار أجدادنا القدامى. وهذه طريقتهم الخاصة لإخبارنا بالمجد الذي خطته دروبهم في الحياة.

أبي يقول أيضا من يفرط في إرث أجداده لا مستقبل له في هذه الحياة.

لم يفهم عبد الله من كلامها شيئا جرى خلف أغنامه التي سرحت بعيدا ناحية الجرف. منذ أن نبتت بيوت القرية كالدمل على وجه الأرض، كانت بيوت (العنج) في مكانها هناك عند التل، شامخة كالجبال الراسيات في عرض الصحراء. لا تحركها ريح عاصفة مهما عصفت بالمكان. ولا يجرفها سيل مهما سال الوادي وجرت مياهه هادرة متدفقة. كانت تغطي القرية بظلها الممتد كشجرة باسقة جذورها ضاربة عميقا في التاريخ السحيق. لا أحد في القرية يعرف متى بنيت ومن الذي قام ببنائها من المؤكد ليس عكاشة. اصطلحوا على تسميتها ببيوت (العنج) أولئك القوم طوال القامة مفتولي العضلات. عرفوا ذلك من خلال قبورهم الممدة كالخنادق و المتناثرة في المكان ومن تماثيلهم العملاقة المنحوتة على هامات الجبال.

قال الدخري:

أن الإنجليز تعمدوا أخذ تلك التماثيل جنوبا إلى مدينة الخرطوم لكي تكون أمام ناظريهم فوجودها و بتلك الطريقة وهي شاخصة بصرها رافعة هامتها إلى عنان السماء أمام أهل القرية قد يغري مغامرا آخر حدثته نفسه بالغزو شمالا. فحري بهم حبس تلك الروح المسكونة في جوف تلك التماثيل الحجرية حتى تسهل السيطرة على روح الثورة الكامنة في نفوس الأحفاد.

قال أيضا:

الإنجليز يعرفون ذلك جيدا كل شيء موجود في كتبهم القديمة. فهم يعرفون عنا أكثر مما نعرف نحن عن أنفسنا، يعلمون أن جدنا الملك النوبي العظيم (تهراقا) قد وصلت جيوشه إلى القدس وسوريا وحتى حدود الدولة الرومانية. أنا ذات نفسي شاهدت ذلك التمثال القابع في بطن الوادي حينما كنت أسيرا، وبالرغم من أن أنفه كان مكسورا ولكن شعره المفلفل وسحنته النوبية و شفتيه الغليظتين توضحان بجلاء أنه من هذه الأرض.

ولكن من ينصت إلى كلام الدخري فقد كان يمضغ في الهواء و يحرث في البحر ويبذر بذوره لا في الحقل وإنما في الفراغ فلا تطرح إلا هباءً تسفوه الريح.

بيوت (العنج) تقبع هناك منذ أمد بعيد أسفل التل المرتفع قليلا عن الأرض و المطل على القرية من الغرب. كل القرية كانت تخاف التواجد في ذلك المكان من بعد المغيب. ثمة ثرثرة كثيرة وحديث يدور هنا وهناك عن ذلك المكان و أنّه مسكون بأرواح شريرة. قابلت جاد السيد رئيس المركب في إحدى الليالي. كان جاد السيد في ذلك اليوم يقوم بنقل المعزين بين الضفة الشرقية والغربية للنيل عقب وفاة العمدة، تأخر في ذلك اليوم إلى ما بعد صلاة العشاء وكان حشد من الناس والدواب قد ركبت على ظهر مركبه الصغير. لدرجة أن جاد السيد استعان بمركب أولاد عوض الله رغم بغضه الشديد لهم و لكن الواجب حتم عليه فعل ذلك. أفرغ آخر كوب من الماء المختلط بروث الدواب من بطن المركب على النيل وربطه على جذع شجرة (الطرفا) و صعد الجرف في طريقه للبيت تخايل أمامه سراج من نور، قبالة بيوت (العنج).

غالب خوفه وشغفه بالحفلات فغلبه حبه للطرب. فقد كان مغرما (بالدلوكة) وأصوات الغانيات يشد لها ظهر الليل أينما سمع صوت (الدلوكة) تشق سكون الليل. وظيفته كرئيس للمركب، الجسر الذي يربط بين ضفتين جعله معبرا لأخبار جميع القرى المفرح منها والحزين. فقد كان بمثابة الماكينة التي تسحب المركب على طريق موج النيل. منذ الصغر شب جاد السيد بارز الصدر مفتول العضلات وكم تباهى بقوته عندما يبلغ به الطرب ونشوة الخمر مداهما فيخلع جلبابه ويقف لضربات السوط (العنجاوي) كالطود الأشم. ربط خوفه على حبل المركب وتبع طربه مع ذلك الضوء فظل هائما طوال الليل يزرع ظلام الليل ولا يحصد نوره. حتى أن زوجته نامت وتركت عشاءه معلقا تتربص به القطط. حينما بلغ منه التعب مبلغا تعثرت قدماه، سمى الله وقع و تكوم على الأرض أشرقت عليه الشمس صباح اليوم التالي وهو مكوم طرف الجبانة، نفض من رأسه روث الحمير والتراب وغفر عائدا يجرجر الخيبة. سمعت أمونة قصته من نساء القرية وهن يجتمعن حول قهوة الظهيرة.

كان بالسقف (ذنبور) يحاول الدخول إلى بيته في جزع النخيل المستند عليه خشب الدوم. كان الذنبور يدخل ويخرج من الجذع كمن يبذر بذوره أو كأنه موسيقي بارع يصنع مزمارا من ألواح الخشب وتبقى عليه عمل الفتحات لكي يعزف بعدها طنينه الذي يبدو للوهلة الأولى نشازا ولكن سرعان ما يتحول إلى موسيقى لها جرس تألفها الأذن. كان جزع النخيل بين فكي (الذنبور) أشبه بذلك المزمار الذي كان يصنعه عبد الله من سيقان الذرة الشامي عندما يعزف لها بيديه الصغيرتين أعذب الألحان من أغاني ذلك الزمن الجميل. أعادها طنين (الذنبور) للاستماع إليه وكأنه يغار أن تنشغل بغير موسيقاه. كانت هناك تجمعات لمستعمرات النمل الأبيض على جريد النخيل وأخشاب الدوم، لم يسلم من تطفلها بساط السعف الأحمر المغطى بثوب الدمور الأبيض الذي حملت فيه أم عبد الله إلى مثواها الأخير.

ثمة ما يشغل عقلها. سألت نفسها:

ما هو العمل إذا سقط السقف في هذا الخريف؟ لابد من تجديده حتى أننا نحتاج إلى بناء غرفة جديدة.

مطت شفتيها وقالت:

هذه الغرفة ما عادت تسعنا.

تشاغلت عن بؤس الحال بالتمني.وهي في حالها تلك بين طنين (الذنبور) و حديث النفس التي يحدوها الأمل، أودعت عيونها للنوم. فقد حاكت ثوب الليل من مغربه إلى مشرقه بعيون مكحلة بألم المخاض. رأت في المنام أن زوجها عبد الله أهداها ثوبا جديدا من الدمور الأبيض حوافه منقوشة بالحرير الأحمر. حينما همت بارتداء ذلك الثوب الأنيق وجدت دابة الأرض قضت على حوافه الحريرية الحمراء. حينما استيقظت من النوم روت الحلم للداية أم الخير قالت أم الخير:

سوف تضعين غلاما و ....

ثم سكتت. من فرط فرحتها ببشرى الغلام لم تسأل أمونة عن ما بعد الواو تلك. لطالما حلمت بولد ذكر يحمل اسم أبيه و يكون حاميا لأخواته الأربعة وسندا لزوجها وردا شافيا يسكت ألسن نساء القرية. مشت في حلمها أبعد من ذلك عندما تمنت أن يصبح ولدها ضابطا بالجيش تلمع النجوم الذهبية على كتفيه مثل مفتش المركز، كل القرية كانت تخشاه، حتى العمدة الذي لا يخاف الله يهابه ويضع له ألف حساب، لاحظت ذلك خلال زيارات المفتش المتباعدة للقرية.

ألم المخاض كالبرق القبلي يأتي من بعيد في أول النهار متباعد الخطى سرعان ما يرتفع لأعلى وتتقارب خطواته حتى يبلغ مداه عند الحجاب الحاجر بعد منتصف الليل حينها لا محالة ينزل بالمولود.

(٧)

في ركن قصي جلست زينب على مقعد خشبي صغير يكاد يلامس وجه الأرض وهي تعيد خلط عجين القمح قبل أن ترمي أول خبزها على الصاج، الذي باتت حرارته تلهب ساقيها، رفعته لأعلى أعادة توزيع النار، عدلت وسائده الحجرية بما يمكنها من إضافة مزيداً من الحطب، اطمأنت على حرارته حينما رقصت حبيبات الماء على سطحه واختفت في البخار.

ليس هناك ما يستر رائحة الخبز الشهي فمكان إعداده مغطى بسعف النخيل وبقايا سيقان الذرة ومحاط بسيقان (الحلفا والطرفا). لا يحبس دخان ولا يمنع تسلل أشعة الشمس و لا حبات المطر. سال لعاب السارة ابنة عبد الله الكبرى التي كانت تغسل أواني شاي الصباح حينما تذوقت بأنفها رائحة الخبز الحار. أكملت السارة غسل أوانيها بأسرع مما توجب ونشرتها بإهمال على حبال السرير القديم ذي الرجل المكسورة و المسنود على الجدار. تبعت أنفها حيث رائحة الخبز الساخن الشهي.

قالت خالتها زينب وهي تخرج خبز (قراصة) القمح المستديرة المنقطة من النار:

أخبري أبيك لكي يحمل معه القمح والذرة إلى الطاحونة، أوشك الطحين على النفاذ، اليوم الخميس وعادة ما يزدحم سوق الخميس بالخلق من كل القرى، كما أن السماء ملبدة بالغيوم. لابد أن هذه السحابة الداكنة سوف تفرغ ما في جوفها فوق رؤوسنا وقد تتسبب في قطع الطرق إلى السوق.

كانت زينب ماهرة في صناعة خبز (قراصة) القمح البلدي، كانت تتركه يستوي على مهل و على نار هادئة فتخرج الأقراص المستديرة محمّرة عليها نقاط أشبه بشامة على وجه حسناء.

حاضر خالتي.

قالت سارة وعينها واحدة على الخبز المحمّر المرصوص فوق بعضه يتصاعد منه البخار والأخرى على العجينة التي بدأت ترتفع لأعلى محمرة على الصاج، قطعت شكها باليقين و بدون إذن من خالتها أخذت نصف القرص الذي خبزته عيونها وهو على النار.

خرجت مسرعه ناحية أبيها، في الأثناء توقف عبد الله عن سرج حماره رفع رأسه و ثبت عمامته جيدا وقال:

مرحبا حباب السارة.

ردت سارة وفمها يلهث ويمضغ في الآن نفسه:

قالوا ليك لا تنس القمح والذرة و لحم فخد أحمر لتجفيفه ورأس سكر وشاي وخيط للسراج.

أخذت نفسا عميقا وبلعت ريقها، أضافت وهي ترفع السبابة متوعدة:

و إياك أن تنسى حذائي مع الإسكافي له دوريين بالتمام.

رد ضاحكا وهو يعتلي ظهر حماره بعد أن رفع عليه حمله واعتلى أحد جذوع النخيل المغروس وتد على وجه الأرض:

لن أنسى وحلاوة سمسمية للسارة.

لمعت أسنانها كبرق خاطف حينما ضحكت فبدت فلجة أسنانها ورثها الخاص من أبيها. حث دابته على السير باتجاه الجنوب متفاديا حبال السعف الممدة على الأرض فأسرعت الخبب.

بين عبد الله وحماره رابط خفي فهو من عمر بنته السارة قبل حوالي ثمانية سنوات يتمته أمه فسقاه عبد الله بيديه حليب الأبقار والماعز، كبر الحمار وشب كفرد من أفراد العائلة. كان يتعرف على صوت عبد الله من بين جميع الأصوات ويميز رائحة عرقه وطرقه. الدرب الشرقي ينزل فجرا لأراضي الجرف حيث السواقي والنيل، الدرب الغربي سادر عند مغيب الشمس للقرية أما الدرب الشمالي الغربي عادة حزين يوصل للجبانة.

سكّة الألم والضياع

(١)

في الطريق إلى السوق التقى عبد الله بحسان وفضل ترافق ثلاثتهم في طريق متعرج ضيق حفرته حوافر الدواب ودكته فصار كجدول صغير. كانت الأرض منبسطة، غطت جسدها بلحاف مائي عكر شدته من النيل، كان الماء على مد البصر يبدو كالسراب أو كأنها زرعت سحابا فانبتت ماءً يعلو ويعلو حتى وصل إلى غابة السلم ظل الوادي من رمال الصحراء.

كان لقاء الشتيتين رمال الصحراء ومياه النيل فدخلا في عناق طويل كعاشقين ينشدان إطفاء نار الشوق وظمأ القلوب ولكن هيهات فكلما فاض النيل ترد رمال الصحراء وهل من مزيد؟.

مدد النيل موجه خارج لحاف الجرف كعادته في منتصف شهر أغسطس من كل عام يتمطى كالذي أفاق من ثبات عميق بعد يوم عمل مضني. كانت المياه تغطي كل الجزر والأودية حتى الأفق البعيد انعكست عليه صورة المياه المتراكمة كالسحب، تغير المنظر بالطريق تماما على عيون عبد الله. فعيونه التي كانت ترعى الحقول الخضراء على مد البصر. سجادة طويلة من الخضرة والجمال، سيقان الفول المصري بزهورها البيضاء بجانب زهور البرسيم الصفراء تحفها سيقان الذرة حاملة سنابلها الخضراء. سجادة خضراء منبسطة على سطح الأرض عليها نقوش من كل لون. ترتفع أشجار المانجو والنخيل وعلى هاماتها ثمارها توزع الهواء بجريدها على المكان. أما اليوم فلا يرى عبد الله أمامه سوى مياه عكرة فائرة كالتنور.

كسر صوت عبد الله حاجز الصمت الذي لف المكان حيث لا صوت يسمع سوى تغير الأرض تحت حوافر الحمير وهي تنتقل بين أرض رملية إلى أخرى صخرية، سائلا حسان:

نويت بيع البقرة الصفراء؟!

تظاهر حسان بتعديل وضع الحبل الذي كان يسحب به البقرة. أحكم وثاقه جيدا على سرج حماره وهو يبحث عن عيوب في البقرة

وبعد تفكير طويل قال:

رفضت الثور و لها حولين كاملين لم تدر اللبن.

ألتفت ناحية البقرة ليرى ردة فعلها وجدها طائعة منقادة، تمادى أكثر في تهمه:

أضحت تتضجر من جر الساقية والمحراث و ربت الشحم فصارت تأكل أكثر مما تنتج.

رفع يديه معترضا وقال:

لا قبل لي بإطعامها فقد تمدد النيل وطال موسم الفيضان وغمرت المياه كل الجروف والجزر حتى حلفا القيزان الرملية لم يسلم من غضب النيل.

تهم كثيرة بحق البقرة ساقها حسان كل واحدة منها كانت كافية لذبح البقرة وسلخها في سوق الخميس.

رد عبد الله:

استغفر ربك يا حسان. النيل حياة وتجديد لشباب الأرض، قل إنك أصبحت معدما لا تقدر على طلبات زوجتك التومة المتزايدة، ألبقرة لا شيء فيها.

أطرق حسانا خجلا. لام عبد الله نفسه ربما قسا عليه، في موسم الدميرة يقل الزرع ويجف الضرع و تخلو المخازن من المؤن وتضيق الأرض مع رحابتها بمياه النيل. استدرك عبد الله قائلا:

لقد كنت أمازحك حسان، أرجو أن يقدرها طالب الجزار حق قدرها وينقدك ثمنها جنيهات ورقية. ويزيدك كيل، لحم من الفخذ مجانا.

ليس لهم غير الضحك سلوى، فاسلوا همهم بالضحك.

قال فضل وقد بدت عليه علامات الحنق:

تأكيدا لكلامك يا عبد الله فقد بعت الثور عام أول إلي طالب الجزار، فغير بختنيه لم يسدد كامل المبلغ حتى دربنا هذا. هكذا هم الجزارين يأكلون اللحم و يتركون لنا العظم.

قالها بصوت مكتوم فقد امتلأ جوفه بالحنق والغيظ و فمه بالكلام والتمباك فلم يستبينوا تفل الكلام أم بلع (التمباك).

(٢)

اقترب ركبهم من السوق، ارتفع صوت الدواب والناس اللذان اختلطا بالغبار في الأجواء. يبعد السوق مسيرة ساعة بالدواب، يتكون السوق من مجموعة (رواكيب وقطاطي) وعشش متناثرة هنا وهناك بشكل عشوائي مشكلة محلات تجارية. يقع السوق على سهل رملي منبسط ، يتوسط مجموعة من القرى وإن كان يبدو أقرب إلى قرية الفكي الحسين من الجهة الجنوبية. يقام السوق يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع. و يؤمه عادة جميع سكان القرى القريبة لقضاء حاجياتهم الحياتية ومعرفة أخبارهم الحية وبخاصة يوم الخميس حيث يكون السوق مشهودا ومزدحما منذ الصباح الباكر.

بدأت الشمس ترسل أشعتها من بين الغيوم لتستطلع الطريق فتحشر نفسها بين (الرواكيب والقطاطي) التي تراصت بترتيب عشوائي مشكلة محلات تجاريه مكتظة بالبضائع والمشترين.

افترق ركبهم عند مدخل السوق كل غاص داخل غبار يؤدي به إلى مقصده. خرج عبد الله من غباره قبالة طاحونة علي ود جابر عرف منه أن صديقه و ابن عمه وتوأم روحه الطاهر ود الخزين قد عاد من جنوب البلاد ليلة البارحة وأنه ينتظره عند قهوة مرسال. لمعت شرارة الشوق في عيون عبد الله، أوصى علي ود جابر أن لا يقوم بخلط القمح مع الذرة كعادته عندما يركد بقايا العرق و(المريسة) في قاع رأسه من أمس.

ضحك علي ود جابر وهو يرسم هلال ماركة عبد الله على أكياس الطحين، همهم بامتعاض:

حتى العرقي و (المريسة) الخدم زدنها ماء. كل شيء تغير في هذه البلاد بعد موت مولاي خليفة المهدي وسقوط الراية في أم دبيكرات.

قذف بكلماته الأخيرة مع تفله (التمباك) التي أخطأت جوالات الطحين بقليل.

(٣)

قطع عبد الله المسافة إلى قهوة مرسال سابحا في الغبار وسط أصوات الباعة والدجاج. ذهب بخياله بعيدا لطفولته الأولى مع ابن عمه وتوأم روحه طاهر القوم. خرجا إلى الدنيا في ذات الساعة، الطاهر سبق عبد الله بلحظات لأن أمه رضينا كانت تسبق نساء القرية في النهوض. كانت تنهض من نومها باكرا لإعداد الطحين. ذلك اليوم نهضت رضينا متثاقلة تحمل همها على كتفها وبطنها المنتفخ أمامها أحست بطرقات رجليه على جدار رحمها يريد الحرية، وضعت يدها على بطنها موضع الطرق وعضت شفتيها على ابتسامتها فسكت ألمها و تلاشى بريق أسنانها الذي لاح قبل قليل. صرخت بلكنة زنجية:

اخرج يا ابن الكلب فأنت خلاصي وحريتي من عبوديتي.

غاصت عيونها في الفراغ الممتد بين طفولتها الحية وحياتها الميتة بعد إحكام قفل القيد حتى وصلت إلى يوم حبلت به. كانت بنت عشرين تطحن في مخزن الذرة يستند جزعها على ركبتيها ويديها تدفعان بالرحى فيندفع رأسها ونهديها ذهابا ويعود ظهرها ومؤخرتها إيابا. كانت تلف جسدها بقطعة قماش يستر ويشف عن فخذيها. يتساقط منها العرق فتنزلق يدها عن الرحى عدة مرات. كانت تسب سيدها وتلعن يومها، اليوم يحتاج المنزل كمية أكبر من الطحين، سيدتها عيشة الزوجة الثالثة لسيدها الحزين وضعت بنتا ليصل عددهن إلى أربع عشرة بنتا من أربع نساء إحداهن كانت مصرية. فقد كانت كل بذور الخزين ثمارها بنات فلا يألو جهدا يبحث عن أرض أخرى تنبت له الولد. ذلك الصباح دخل الخزين حانقا إلى المخزن ليتفقد المخزون لمح رضينا آلة الطحين البشرية أمامه، فارت فحولته. كانت تردد أغنية جنوبية قديمة تضيء بها الخيال وما تبقى من ذكرى. تذكرت حينما كانت طفلة في العاشرة من العمر حينما دقت العبودية أوتادها ونصبت خيمتها في قريتها شمالي مدينة فنجاك. ذلك اليوم احتشد صائدو البشر، أحرقوا قريتها قتلوا جدها و جدتها، أمها وأبيها وثلاثة من أخواتها. فرت هي وإخوانها و تفرقوا بالغابة، ثلاثة أيام بلياليها كانت تأكل ورق الأشجار وتشرب ماء الباباي.

بعد مضي أربعة أيام رأت جندي أسود من بين الظلام ظنته الخلاص مدت يدها أمسك بها وضع قيده الحديدي مكبلا حريتها و نازعا ختم آدميتها. لم يكن ذاك الجندي سوى عبد لدى سيده تاجر الرقيق اليوناني. ازداد حنقها وغضبها سحقت حبات الذرة والقمح تحت رحاها فاختلطت حبات الحصى بالطحين. سيء الظن بها، حسبوها تخلط حبات الحصى بالقمح.

شحذ صيادها الجديد سلاحه اقترب متخفيا بين جوالات الذرة و(قسايب) التمر، حبس أنفاسه اللاهثة و استجمع كل غضبه من النساء وقع عليها كالجمل. الخوف قيد فمها لم تقاوم أفرغ كل غضبه بداخلها اختلط غضبه بحنقها وانكسارها خرج صوتها من بين دموعها واستجدائها:

سيدي لا، سيدي لا.

فكان الولد الذي زرع الخزين أرحام أربع نساء ليحصده دون جدوى. هذه الجارية السوداء التي جلبها من البقعة أم درمان في إحدى سفرياته وكانت باقي حساب، دين لأحد تجار الغلال، حينما عجز التاجر عن سداد دينه سده بهذه الخادم الطفلة التي لا تعرف سوى الهرب حتى أنه لم يكن يعرف لها اسما. قبل الخزين بالمقايضة لطالما كان مقايضا ماهرا. رد على تاجر الغلال ضاحكا:

رضينا.

ومن يومها عُرفت وسط الأهالي بالقرية باسم رضينا. عندما أنزلت القابلة أم الخير أم عبد الله من الحبل بعد خروجه صارخا في وجهها ممتعضا لتأخيره كل هذا الوقت، كانت رضينا بالمخزن وسط جوالات الذرة الفارغة قد كسرت آخر سلسلة من قيد العبودية وقطعت الحبل السري وأخرجت مفتاح حريتها من رحمها غلاما طاهرا.

(٤)

في قهوة مرسال التقى عبد الله ابن عمه الطاهر، دخلا في عناق طويل، سالت دموعهما، بللت حروف الكلام. أجلسه الطاهر بجواره وبدأ عبد الله يسأله:

كيف كانت رحلته من الجنوب.؟ وكيف هي حياة الميري؟.

كان الطاهر في نهاية العقد الثاني فارع الطول أبنوسي اللون أجعد الشعر دقيق الملامح نسخة أبوه الخزين المصغرة. أكسبه التعليم رقة الكلمات وعذوبة الصوت وحسن الهندام فقد تخرج في مدرسة الزراعة التابعة لكلية غوردون. يعمل الآن مفتشا زراعيا بجنوب السودان. شب الطاهر وكبر بين مخزن الذرة والمسيد، الذي ضم إليه في الخامسة ليملأ الجرار والأباريق. كان الطاهر يرى الأطفال نده يلعبون وهو يعمل، يحفظون الواح القرآن وهو يجر حماره يحفظ مع القرب طريق العودة للمسيد. في مرة من المرات اجتمع عليه الصبية، صاح أحدهم:

الطاهر ولد رضينا.

انقض الطاهر كالنسر علي الصبي، كتم أنفاسه و حبسها بين يديه حاولت روح الصبي التسلل هاربة تجمع الصبية حولهما كمن يحجز. ضربوه أحدهم دلق الدواة علي وجهه الأسود ما زادته سوادا لكنها لطخت عيونه وثوبه الممزق. دافع عبد الله عن ابن عمه بضراوة، سقط من فوقه لكي يشكل درعا واقيا، اقتسما الضربات والهمزات. انتهرهم الشيخ الفكي حسين. أنفضت المعركة وفي العيون ميعاد لمعركة أخرى، أخذه الشيخ بجواره مسح دموعه المختلطة بالرمال وحبر الدواة، من بين النحيب خرجت كلمات الصبي الأسود.

أبوي الشيخ لماذا يضربونني ويعيرونني بأمي رضينا.؟؟

قال الشيخ:

يا المبروك.رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا .

لماذا لوني أسود؟؟؟

يا ولدي القدر أسود من الخارج ولكن داخله أبيض كن كاللبن الأبيض داخل القدر. يغلي ولا يتخثر.

ليتني كنت قويا حتى أضربهم؟

ضحك الشيخ وقال:

يا المبروك قلب المؤمن بين إصبعي ربه يقلبه كيف شاء. كن طيعا لينا بين إصبعي الله وتمسك بيد خالق الناس تهابك كل الأجناس.

لماذا لا أقرأ لوحي معهم؟

استطرد الصبي معاتبا:

لطالما كانت يداي تملأن الجرار وعيناي هناك تتلوان مع شفاههم القرآن وأذناي تسمعان ترتيل ألواحهم .

أعجب الشيخ بالصبي بدأ ذلك واضحا فقد برقت عيناه وافترت شفتيه بابتسامة آثره وقال:

اقرأ يا المبروك. هيا أتلو.

طفرت دمعة من عين الشيخ سقطت على رأس الصبي الأصلع. مسحها الشيخ و رفع يديه للسماء و همهم بأدعية كثيرة.

(٥)

الفكي حسين قنديل وتد من أوتاد الله في الأرض، سمي جده الحسين الكبير ارتحل جده الكبير من قبل التركية السابقة إلى هذه الأرض بعد أخذه للطريق من المجذوب الكبير بمدينة الدامر شمالي الخرطوم تضافر وتصاهر حوله المريدون والحيران. نار القرآن وصوت الحيران مع قليل من الزاد كفيل بجمع الحبان من كل فج ومكان. فنبتت بيوت القرية من حوله بدون استئذان. كان شبيها بجده في رسمه واسمه. في صباه كان يتجمع الصبية حول نار القرآن، يتبارون كل يتلو لوحه ومن الذي يجعل النار لا ينطفئ لهيبها بحسن تلاوته و عذوبة صوته.

ثم يرسل ريقه في شكل سير متواصل تجاه النار فيزداد لهيبها وترتفع ألسنتها المتوهجة عاليا إلى عنان السماء، لذا لُقب بقنديل.

كان سبعينيا في ملاحة الشباب دمث الأخلاق هينا لينا، تتمثل فيه سماحة الدين فيمثله منهاج وحياة. يعالج بالقرآن المسكون والمجنون. طبقت سيرته الآفاق و طلبت جيرته و أجيبت دعوته.

جنود الجهادية التي رسمت دروبها في كل المدن والقرى لم ير دربها وهي تزحف شمالا لغزو مصر في قرية الفكي حسين، فقد غم عليهم إعصار فيه غبار. جنود الإنجليز الغزاة في طريق ثأرهم لم يأخذوا منها نقير.

يسأل الطاهر المبروك:

أبوي الشيخ .الترك مسلمون لكنهم طاغون؟ يستدرك المبروك.

يدركه الشيخ:

لأنهم تركوا الدين واهتموا بالعجين.

يتعجب الطاهر المبروك:

والإنجليز كفار لكنهم ليس في بطش الترك وأجدهم عادلين!!!

يجيبه الشيخ.

يا ولدي. الدين المعاملة.

يتمنى الطاهر المبروك:

أنا أريد أن أصبح مثل مفتش الغيط الخواجة. حتى العمدة يهابه.

ضحك الشيخ و هو يربت على رأس المبروك يرفع يديه للسماء ويدعو الله:

بركة القيوم طاهرنا يقوم ويبقي سراج للقوم.

أراد له الشيخ العلم اللدني. أراد الطاهر العلم الدنيوي.

كان له الأب الحاني والساعد الحامي والنور السامي. وكان هو للشيخ الابن البار و الحوار الأنصار وحسن الجوار. حفظ القرآن في حولين برواية حفص والدوري وأجزاء من كتب الفقه والحديث، قرأ كتاب الحيوان وطبقات ود ضيف الله.

ثمة شعاع من نور يلمع في نهاية النفق

(١)

ورد الطاهر النيل ذات مرة تقابل مع مفتش الغيط الإنجليزي في طريق ضيق كصراط. وقف الجالسون وتوقف العابرون، نزل الراكبون و هرول الماشون من أمام حصان المفتش إلا الطاهر كان يركب حماره الأعرج يتراشق ماء القرب مع الغبار فتشتكي جنبات الطريق من البلل.

تحدث إليه المفتش الإنجليزي بعربية مكسره:

ولد لماذا لا تنزل و تفسح الطريق؟!

يا خواجة ألا تري حماري حمله ثقيل، فلماذا لم تباعد أنت حصانك عن الطريق؟

بحث المفتش عن كلماته العربية القليلة، ضاعت في حلقه، عقدت الدهشة لسانه ، خرجت كلمة وحيدة مدخنة بدخان الغليون؟.

Whaaat؟؟!!!

لصف لون المفتش المصفر مع أشعة الشمس صرخ قائلا:

ولد ما يعرف مين أنا ؟!

لمع بريق التحدي في عيون الصبي الأسود وقال:

أنت خواجة و لكنك تجهل من أكون أنا؟!

تفل الخواجة مرارة الكلمات التي تذوق طعمها مع دخان الغليون قبل قليل وقال مستهزئا:

ومن تكون؟.

الطاهر. اسمي الطاهر ولد الخزين.

تراجع حصان الخواجة للوراء:

ألا تخف مني يا طاهر؟!

بصق الطاهر بين أذني حماره مرارة الظلم وحموضة الاستعباد وقال:

أبحث عن خوفك يا خواجة قد تحتاجه يوما، جدي يقول لا ينبغي للرجل أن يخاف في أرضه.

يقول جدي أيضا كن مطيعا لأصابع الله تهابك خلق الله.

يداور دوره بالسؤال.

كيف لي أن أصبح مفتشا للغيط مثلك يا خواجة؟

ضحك المفتش الإنجليزي، لمعت رباعيته الذهبية شد لجام حصانه مبتعدا عن المكان ثم التفت وقال:

طاهر يذهب للمدرسة، فيصبح مفتش غيط أو ما يشاء.

حفظ الصبي الكلمة جيدا ما تشاغل في طريق عودته للمسجد بغيرها تبعثر أغلب الماء على الأرض وهو يحث حماره بعصاه ليسرع الخبب. وصل إلى موضع (الأزيار) التي كانت حوافها جافة مشققة جراء العطش. أفرغ الماء المتبقي بالقرب ورمى بها على الأرض وهرول إلى أمه رضينا. تراها أين تكون غير ذلك المخزن القديم. بادرها بالسؤال:

أريد الذهاب للمدرسة؟

نظرت إليه ببلاهة، مدت يدها تحسست موضع الحمى في جبينه سعدت بنظرة التحدي التي شع شعاعها من عيونه. قالت:

و لكنها يا ولدي تعلم الصبيان كلام النصارى.

صمتت قليلا ثم أردفت:

والخياسة!

هدأت أنفاسه قليلا وقال:

محمد ولد العمدة تعلم فيها ولم يتبدل لسانه و علي ولد الناظر لم تظهر عليه علامات الخياسة

هربت أمه من عيونه خلف جوالات الذرة قالت وهي تتظاهر بنظافة الذرة من الحصى والقشور.

قد يبدلون دينك.؟

لف من الناحية الأخرى وقف أمامها وجه لوجه و قال بتحد كبير:

لم يصبح علي ود الناظر نصرانيا ويأتي المفتش الإنجليزي لجدي ولم يطلب منه خفض صوت التلاوة ولا إطفاء نار (التقابة).

قالت وهي تدير وجهها من نظراته المتحدية المصوبة بإتقان و تحاول إخفاء عيونها في الوقت نفسه من كلماته الصادقة التي يبدو أنها أصابت الهدف في الصميم:

لن يرضى أبوك الخزين وقد يعلقك على الفلقة.

ظنت أنها قضت على آماله الكبيرة. لا. ليس لمؤمل مثله وصلت حدود أحلامه إلى أبعد من مفتش الغيط الإنجليزي. قال بثبات المؤمن الراسخ الأيمان:

لن تكون الفلقة أسوأ من تعليقي مع قرب الري صباح مساء مثل الثور المربوط بالساقية، غير أني أسحب حمار أعرج عليه قرب بدلا عن (القواديس).

أضاف وهو يرى ابتسامة رضا تسللت خلسة هاربة من بين شفتيها:

أبي هو جدي الفكي حسين، الخزين لم يكن غير أنبوب أخرجني من ظهره غاضبا في شكل نقاط، حتى أنه لم يطلق علي اسما.

قال و قد ترقرقت عيونه بالدموع:

جدي الفكي حسين هو من أطلق علي اسم الطاهر. أخبرني بذلك هو بنفسه.

قربت وجهه إليها أكثر، مسحت دموعه بأنفاسها اختلطت دموعهما مع أنفاسهما سالت على خديهما كلام. حاصرها بعزيمته القوية وتصميمه الجاد فاستسلمت أمه رضينا وهي راضية. الآن فقط تحررت من قيد ذلك الجندي الزنجي وكسرت قيد الخلاص.

(٢)

غزلت رضينا صوف الغنم لحاف و قصفت سعف النخيل والدوم بساط وفتلته حبال. جمعت بقايا الفول المصري من طرف (التقيات) وفرت عشرين ريال أبو طيرة نقدتها للعمدة في حضور أبيه الشيخ. تكفلت برسم الدخول للمدرسة وتكفل تفوقه ببقية المشوار فكان الأول (البرنجى) على أقرانه، كافأته الحكومة منحة تعليمية مجانية حتى تخرج مفتشا زراعيا هاهو يعود من مكان عمله بالجنوب لأخذ عزاء والده الخزين.

والده الخزين زينت إليه الشهوات فاختار أشهاها. النساء و القناطير المقنطرة من المال، فأصاب منها ما أصاب المنهوم. كان يتاجر في الغلال فزادته سنوات الجدب والقحط وحروب الأتراك والمهدية سعة لم تضيق بها مخازنه. كان داهية، ساهية عنه ضرائب الأتراك، فبعض الرشا للتركي ونصفها (للمتورك) تحيله إلى فقير معدم تجوز فيه الزكاة. جهز جيش الجهادية الغازي الزاحف شمالا إلى مصر بالمؤن والدواب، راجيا أن تعود إليه خيوله محملة (بالمصراويات) البيض سبايا أترابا ولسان حاله يقول:

من جهز غازيا فقد غزا.

حينما انكسر الرمح في صحراء توشكي، سارت خيله القهقرى في ركاب الإنجليز طلبا للثأر يهش عليها بخيزران الرمح المكسور. لم يحب الطاهر أو يكرهه لكنه كان يذكره بخرقة بالية مسح عليها بقايا نجاسته ورماها لم يحس وجوده إلا حينما أبرق حاكم مدينة بربر إلى العمدة يخبره أن الطاهر ولد الخزين أحرز المرتبة الأولى في امتحانات الوسطى. حينها تنبه للفتى الأسود، ظله الذي مضى ومن يستطيع أن يمسك ظله؟

حكى عبد الله عن الدميرة وتمدد النيل وعن الهدام الذي ابتلع الجزر والطين والنخيل وقدمها لقمة سائغة إلى النيل الذي ابتلعها في جوفه ومازال يطلب المزيد. شكا من غلاء الغلال وضمور البطون والضرائب التي أرهقت كاهل الناس المحني أصلا من ثقل الأحمال وكثرتها. قال عبد الله وهو يضرب كفا بكف:

الإنجليز الأنجاس حتى بيوتنا التي بنيانها من طين الأرض يأخذون عليها ضريبة.

ضحك باستهزاء وقال:

يسمونها ضرائب العتب.

سأله الطاهر:

كيف بالله عليك تركت أمونة؟

شده القلق من طرف ذهنه و ساقه هناك إليها وشغله عن الجواب. أرجعته يد الطاهر للمجلس.

ها..

انتفض وقال:

تركتها تتوجع في مخاضها يا الطاهر يا أخوى.

دعا الطاهر لها بالفرج القريب دعوات الطاهر سلبت خوف عبد الله وقلقه على زوجته أمونة. لطالما كان أبوهم الشيخ يقول:

الطاهر رجل مبروك. الطاهر من أهل الله.

أهل الله لهم أسرارهم. أخبرهم الطاهر عن الجنوب وحياة أهله البائسة، ثورة النوير وقانون المناطق المقفولة، الذي وضعه الإنجليز ومنعوا بموجبة التجار الشماليين من العمل والتواجد بالأقاليم الجنوبية إلا بتصريح من الحاكم العام ذات نفسه وكذلك منعوا الجنوبيين من التحدث باللغة العربية، صفقوا أيديهم حينا وتعجبوا أحيانا كثيرة. انفض مقهاهم مع صلاة الظهر، اتفقوا على اللقاء مساءً بالمسيد. كل غفر عائدا إلى شأنه تظلله همومه.

(٣)

في طريق عودته للبيت مر عبد الله على السوق يبدو أن معركة السوق التي دارت رحاها في الصباح قد توقفت وكل ذهب يلعق ربحه أو خسارته بعيدا. لم ينس عبد الله الطحين مع علي ود جابر ولا حذاء و حلاوة سمسمية لأبنته السارة، لم يرافقه سوى قلقه على زوجته أمونه وسحابات كن يسابقن أشعة الشمس على مضمار الأفق الفسيح. لحظة نزول الشمس من برجها العالي و مشيها بتثاقل وهي تجرجر أذيال أشعتها الذهبية كأميرة حسناء تمشي في بلاط الكون الفسيح، تجاه مخدعها الذي هو بالجناح الغربي للبلاط. شرق برق قبلي ضاحكا في الأفق البعيد.

كان البرق يهش بسوطه اللامع في الفضاء فيلهب ظهور السحاب، يسوقها أمامه كقطعان من الماشية المزدحمة على مورد الماء، يكركر صوتها رعدا. جمع البرق القبلي قطيع السحب من كل أركان الفضاء الواسع في سماء القرية. سقطت حبات البرد والمطر على سقف الغرفة الطيني، فتسربت قطرات الماء من خلال فتحات بالسقف و سالت على الحبل المعلق إلى جذع النخيل الذي كان يقف شاخصا يسند سقف الغرفة المحتقن بالماء. صرخت أمونة صرخة مدوية، كانت معلقة هناك كالمحكوم بالموت شنقا يتمنى خروج الروح من نصفه السفلي حتى يرتاح نصفه العلوي. كادت أن تنزلق يداها المتشبثتين بالحبل. لمع البرق داخل الغرفة أعشى العيون، فسقطت الموسى من يد الداية أم الخير و غاصت بالوحل. من بين البرق والرعد وصرخات أمونة المدوية ودعوات أم الخير. انطلقت صرخات غلام فانكسر السد الذي وقف منيعا في وجه أمواج النيل الهادرة.

خرج عبادي للحياة من بين الآمال والآلام والأوحال كبرق عاصف. وجوده بالمكان يحدث الضجة والضياء. و أخيرا خرج ولدها الذي تحملت من أجله سلخ روحها وتقطيع أوصالها نتفا بلسان أم عبد الله الأمرد:

تزوج بأخرى يا ولدي، أمونة أرض جدباء لا تطرح سوى البنات!

كانت أمونة عندما تسمع هذا الحديث. تقول في نفسها:

و كيف تنتج التين من بذرت بالزيتون؟!

خرج ولدها الذي لاكت همزات نساء القرية و لم تبتلع غمزاتهن كلما انشدن:

مبروك البنت.

ولدها الذي كان في رأسه أربع بنات ويا له من أخ بنات.

تلك الليلة لم يترك النيل بيتا بالقرية إلا و أخبره بولادة أمونة. الفريق الفوق ترك صريف أم الخير شاخصا ليهتدي به للفريق. فريق تحت وجد أبواب مخازن الخزين موصده فدخل من الجدار ولما قاومته هال عليها الحطام. فريق السوق وجده منفضا لكنه محا علامات ود جابر من على أكياس الطحين حتى وصل إلى قبة الشيخ دار حول (المسيد) كدرويش تعلق قلبه بالنوبا وانجذب في حلقة الذكر

غسل النيل أثر أقدام الحيران من على الرمال و سدر منتشيا بصوت الطبول وعبق البخور إلى بيوت (العنج)، وجدها خالية فقد سافرت جنوبا مع مركب خير الله. على أية حال خطت مياهه تذكارها على الحجارة بالحضور، حتى إذا ما أشرقت الشمس كان قد بلغ به التعب مداه فخارت قواه، رجع متثاقلا يجرجر مياهه إلى مجراه.

لبت كل القرية دعوة النيل، نحروا الذبائح، امتلأت البطون، فتة وثريد، (بقنية ومريسة).

دقوا الطبول و النحاس. أنشد المنشدون:

اللهم بهم و بآلهم عجل بالفرج.

النورو نور ومن نور حباب سيدي جدو الرسول.

تجمعت القانيات من القرى المجاورة صدحن:

الليلة جيد ليه الليلة جيد ليه

أسد الخشاشة الضرية

سابل فوق الولية

يا ليلة ود العز والبنية.

زغردت النساء، تقاطع صوت (الدلوكة مع الشتم وتساقطت ضربات العنجاوي) ألهبت ظهور الصبيان، فتطاير الدم رسم الفرح في سماء القرية.

عبق المكان بصوت الدراويش والذكر والبخور، فهل هم كما وصفهم ابن خلدون في مقدمته (أنهم قوم يشتهرون بالخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر)؟!

(٤)

شب عبادي عن الطوق ونشأ وترعرع في القرية بين مياه النيل و رمال المسيد. أكمل المراحل التعليمية بنجاح. كانت تستهويه حياة العسكر لما فيها من الحزم و العزم و ما يلقاه الضباط من المهابة والتبجيل والاحترام والتقدير وسط عموم الناس. لذا لم يتردد ولو للحظة في التقديم إلى الكلية العسكرية بعد حصوله على الشهادة الثانوية العامة. كان متمردا على العادات والتقاليد وعلى كثير من المفاهيم المغلوطة التي كانت سائدة في المجتمع ككل وفي مجتمع القرية بالخصوص. في صباه كان يرفض العمل في أرض الأسياد تلك الأرض التي منحها الإنجليز لبعض الزعماء و رجال الدين لأسباب يعلمها الطرفان. كان شباب القرية والقرى المجاورة يساقون إلى تلك الأراضي كأسرى الحرب أو كمساجين لا أمل في الإفراج عنهم. كانوا يشتغلون النهار بطوله بلا أجر سوى الوعد بالفوز بإحدى الحسنيين. بضعة أمتار في الجنة أو نيل رضا الأسياد على أقل تقدير. كان عبادي يعلم أن خيرات هذه الأرض لا تذهب كلها إلى دوائر الأسياد في الخرطوم كما كان يقول لهم خلفاء الأسياد بالمنطقة من أمثال العمدة ومن لف لفهم بل يمكن أن يكون الأسياد لا يعلمون عنها شيئا و إنما الريع الأكبر من تلك الخيرات يذهب إلى السوق ومنه إلى جيوب الخلفاء التي هي كنار جنهم لا تمتلئ أبدا و دوما تطلب المزيد.

هذا الوضع يجب أن يتبدل.

هكذا حدث عبادي نفسه حينما مر عليه جمع من شباب القرية في طريقهم إلى أرض الأسياد المحاذية لأرض أبيه عبد الله.

لابد من إيجاد طريقة لوقف هذه المهازل التي تحدث باسم الدين.

وبالرغم من أن والده عبد الله لم يجبره يوما على العمل في تلك الأرض إلا أنه كان يرى ويسمع صمته المليء بالكلام:

ربنا يحضرنا زمانكم يا عبادي يا ولدي.

كان عبادي يرى أن هذه الخزعبلات يجب أن تذهب إلى مقابر التاريخ، مثلها ومثل كثير من العادات والتقاليد الضارة التي تحدث باسم الدين كالوشم و دق الشفاه وتخطيط الخدود وختان الإناث وغيرها من الخزعبلات الكثيرة التي عششت وباضت في حضن المجتمع. كان يتطلع في وجه أبيه ويقول:

يا أبي هذا جهل بالدين. السيد لو كان نبيا مرسلا فلن يضمن دخول الجنة لأحد، حتى النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يضمن دخول الجنة لأهل بيته.

كانت أمه لا يعجبها حديثه عن الأسياد بتلك الطريقة. كانت تقول له:

يا ولدي نحن نعلم أن النافع والضار هو الله و إنما نحن فقط نتوسل بهم إلى الله.

وتقول في نفسها كلاما تحرص كل الحرص أن لا يصل إلى مسامعه:

لا تأخذوا كلامه محمل الجد هو جاهل بمقامكم، طلبتكم بالله الصفح، ادعوا له بالهدى والصلاح.

هذا ما جنيناه من المدارس والتعليم.

يا أمي أن الله موجود في كل مكان وزمان الوصول إليه لا يحتاج إلى وسيلة. ما عليك سوى رفع يديك للسماء.

يستطرد في الشرح قائلا:

هؤلاء الأسياد بعلمهم أو بدونه يستغلون جهل الناس، إن كان فيهم خيرا عليهم نشر الوعي بين الناس بدلا عن تلك الليالي التي يتمايل فيها الناس كالأشجار كلما حركهم إيقاع (النوبا) والطبل الأجوف. كان عليهم مليء عقول الناس بالوعي بدلا عن تعبئة كروشهم بالفتة والثريد فيعودون إلى ديارهم أواخر الليل وهم متخمون فيغطون في نومهم العميق.

تذكر عمه الطاهر:

كم أنت محق يا عمي فيما توصلت إليه. فعلا هذه القرية تحتاج إلى الوعي. ليست القرية وحدها، البلد بطولها تحتاج إلى رجال يكون همهم الهام وشغلهم الشاغل إنسان هذه البلد و أين يكون مثل هؤلاء الرجال سوى في مصنع الرجال الكلية العسكرية.

جمع عبادي كل تلك الأفكار و أوقد نيرانا لها في ذهنه ظلت مشتعلة كل الوقت، على هذا الفكر المتقدم و المتحرر من قيود المجتمع استند عبادي وتوكأ وهو يشد الرحال إلى معسكر الجيش. في معسكر الجيش تعرف عبادي على بعض الزملاء أتوا من كل أجزاء السودان و إن كان يغلب عليهم أبناء الوسط والشمال وذلك لشيء أراده الإنجليز أو فرضته ظروف التعليم و انتشاره في زينك المنطقتين أكثر من غيرها من مناطق السودان الأخرى. كانت نقاشاتهم كلها تنصب حول المصير الذي سوف يؤل إليه الحكم بعد رحيل الإنجليز الذي بات وشيكا. كانوا ينظرون إلى الثورة التي قامت في شمال الوادي بواسطة تنظيم الضباط الأحرار بشيء من الإعجاب ويقولون (ما دام أن الأمر نجح في مصر القريبة فمن المؤكد سوف ينجح هنا). فهم بحسب خبرتهم بالمجتمع السوداني والساسة السودانيين يدركون أن لو عطست مصر لا يصاب السودان بالزكام بل يشمت مصر حتى لو لم تحمد الله دون أن ينتظر دعواتها له بالغفران. ويعرفون أيضا أن لو غنت مصر لطرب السودان حد الانتشاء، كما أن لو رقصت مصر و هزت وسطها لعرض السودان و رقص (الكمبلا). كانوا ينظرون إلى الأحزاب السياسية و إلى الساسة من المدنيين الذين يقودون تلك الأحزاب بشيء من التعالي والريبة في الوقت نفسه. يطلقون عليهم تندرا لقب (الملكية). كانوا يقولون (أن هؤلاء الملكية لن يصلحوا لحكم بلد مترامي الأطراف و مختلف الأعراق كالسودان. هم لا يتفقون فيما بينهم على رأي واحد فكيف سوف يتفقون على حكم بلد بهذا الكم الكبير من التنوع كالسودان. حتى قراراتهم تفتقد إلى الدقة و يصاحب كثير منها البطء في التنفيذ). توصلوا إلى قناعة. وهي أن هذه البلاد لن ترقى إلى مراقي المجد بدون اعتلاء أحد العساكر إلى سدة الحكم.

أنشدوا هذه القناعة (جلالة حماسية) مع تمارين الرياضة الصباحية و تدربوا عليها في ميدان (البيادة) والرماية صباح مساء. قالوا في أنفسهم و هم يحدوهم أمل كبير (يوما ما سوف يكون لنا شأن في هذه البلاد، نحن حزب العسكر).

كانوا حينما يخاطبهم الضباط الكبار عن قسم الجندية وهو قسم عظيم يحتم عليهم حماية تراب هذه البلد من العدو وحماية الدستور الذي هو بدوره وضع من قبل الساسة لحماية حقوق الأفراد، يمطون شفاههم ويقولون (هؤلاء الضباط الكبار مدجنين) و يقسمون بالله على ذلك و يستدلون بتلك الحركة التي قام بها الملازم علي عبد اللطيف وصحبه والتي سميت بحركة اللواء الأبيض.

(لو لم يكونوا مدجنين بواسطة الإنجليز لشاركوا مع إخوانهم الضباط في ذلك اليوم). على هذا النحو انقضت أيامهم في الكلية العسكرية وتخرجوا برتبة الملازم ثاني وعينهم على كرسي الحكم الوثير الذي اهتزت أرجله تحت أجساد الساسة مثلما تحركت الأرض تحت أقدام العسكر حينما انفجر البركان الخامل وألقى بحممه بالمكان. لم يدركوا ساعتها لا هم ولا الساسة أن ذلك البركان إن لم يقدر على سد مجري النيل فهو بالتأكيد قادر على إحداث تغيير كبير في تضاريس المنطقة والتي من ضمنها خريطة جريان النيل.

(٥)

عاد الطاهر إلى مكان عمله بالجنوب محملا بتركة أبيه الخزين، أربع نساء وسبع بنات لسن

متزوجات، فقد أهمله صغيرا وأورثه هم أخواته حينما صار كبيرا.

في الجنوب بدأت سياسة الإنجليز في عزله عن الشمال وبدأ قانون المناطق المقفولة يشكل حاجزا بين حضارتين.

أتراه يسد مجرى النيل؟!

إلى وقت قريب لم يكن الطاهر يعرف الكثير عن الجنوب وأهلة. ثمة حديثا كان متداولا بين الناس يدور هنا وهناك. كانت تلوكه ألسن البعض بشيء من الغثيان، عن أن أهل الجنوب حفاة عراة متخلفين عن باقي القطر و حياتهم أقرب إلى حياة الإنسان الأول. لا خير يرتجى منهم و لا فائدة تعود على البلاد من وجودهم معنا في ذات البلد.

تلك الألسن ذات نفسها، كان يسيل لعابها وتفغر أفواهها كاشفة عن أنياب حادة وشفاه متلمظة عندما تتحدث عن خيرات الجنوب التي لا تحصى. عن الطبيعة الساحرة و المياه العذبة في باطن الأرض و النازلة من السماء طوال العام. عن الغابات الكثيفة و المطيرة الممتدة على مد البصر وهي غنية بالثمار من كل صنف ولون. عن السهول الواسعة الممتدة كأنها بساط موشى بالياقوت الأخضر أو لحاف من الحرير الأخضر حوافه حفت بحرفية عالية من المرمر والياقوت فرشته ملائكة هبطت من السماء لكي تغطي وجه الأرض الساحر من أعين الأنس والجن. عن الحيوانات البرية المتوحش والمستأنس منها وهي تعيش في جنة الله في الأرض وكل يؤدي دوره بإتقان. حينما كانت تتحدث تلك الألسن عن هذا الخير الباذخ وذاك الجمال الفاخر وعن خير آخر غيره كثير، بعضه مبذول على وجه الأرض وبعضه كنوز في باطنها وجمال مخفي ولكنه اثر واخر ظاهر. كانت تلك الألسن تبلع ريقها عدة مرات وتمط شفتيها وتقول:

الجنوبيون لا يستأهلون كل هذا الكرم الرباني الوفير. الجنوبيون لا يعملون هم فقط فالحون في الرقص والطرب وإنجاب الأبناء.

يتمادون أكثر وبشيء من الاعتراض المبطن يقولون:

لو كانت لنا تلك الأرض الخصبة التي لو زرعت فيها بذور إنسان لنبت من فوقها بشرا سويا و لو كانت لنا تلك المياه الوفيرة لسقينا منها جنات من النعيم.

حالهم كحال المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. هذه الصورة النمطية عن الجنوب و أهله بدأت في التلاشي شيئا فشيئا من خلال الرحلات التي كان يقوم بها بعض التجار من منطقته والمناطق المجاورة ومنهم والده الخزين، فكان الطاهر يرى القوافل تذهب من مخازن والده محملة بالملح والسكر والبلح والخزف وبعض المشغولات اليدوية وتعود محملة بالعاج وريش النعام وجلود التماسيح والأفاعي والأخشاب. تبدلت تلك الصورة النمطية تماما حينما سافر الطاهر إلى الجنوب للعمل في إحدى المشاريع الزراعية التي أنشأتها الحكومة. حينها عرف أن بالجنوب بشر من دم ولحم، لهم عادات وتقاليد وجذور ضاربة عميقا في باطن الأرض

وأن لهم أحلام يسعون جاهدين لتحقيقها طالما أنهم يدبون على وجه هذه الأرض و تظللهم الشمس الاستوائية الحارة. وبرغم الاختلاف الكبير في الألسن و السحن بينهم وبين بعضهم وبين بقية أجزاء السودان الأخرى، إلا أن الطاهر كان يرى أن النيل الذي يتمدد كعقد أبيض ناصع من الماس وقد نظمت المدن والقرى على ضفتيه وعلى طول المجرى كحبات من اللؤلؤ والمرجان قادر على الحفاظ على حبات ذلك العقد الفريد وإلباسه جيد الوطن كتعويذة أو تميمة إلهية تطرد كل شر متربص.

في نقاشه مع مديره المباشر المفتش الإنجليزي الذي كان يقول:

كان يمكن لإنسان هذه البلاد أن يكون من أغنى شعوب الأرض على الإطلاق ولكن يأبى إلا أن يكون في مكابدة للخروج من ثالوث الأمم التي ما زالت تلبث في ثبات عميق الجوع والفقر والجهل.

يدلل على حديثه بالقول:

لقد أخذتم من العرب أسوا العادات. النعرة القبلية و (الجهوية) والأنفة الكاذبة. ومن الأفارقة الطيش والاندفاع و اللا مبالاة.

ومع أن الطاهر كان يدافع عن قومه بكل ما أوتي من قوة و على وجهة نظره بخصوص هذا الافتراض الذي يفتقد إلى الدقة والمصداقية وبالخصوص أنه صادر من رجل أبيض أتى غازيا للبلاد، ولكن في قرارة نفسه كان يرى أن المفتش الإنجليزي كان محقا في كثير من أقواله.

كان الطاهر يرد على المفتش بالقول:

أن الشعوب التي تقطن على ضفتي النيل وبمعزل عن ماهية لغاتها وسحناتها ودياناتها هي شعوب قادرة على العيش مع بعضها بسلام تام، يسقيها النيل إكسير الحياة فينتقل ذلك المد النيلي العذب من جيل إلي جيل إلى أن يرث الله الأرض ويطوي النيل ويعيده إلى درج خزانته في أعلى الجنان.

دلل الطاهر على حديثه وأسهب في القول كثيرا:

إن الغابة النضرة لا تتشكل من نوع واحد فقط من النبات إنما التنوع الذي يبقيها كثيفة وارفة مخضرة طوال العام. فبينما تجف أوراق بعض الأشجار وتتساقط شتاءً تنضر أخرى و تزدهر صيفا. إذا هو التنوع الذي أوجده الله في الطبيعة والذي يكمن فيه سر الوجود و بقاء الحياة.

مشي الطاهر بعيدا في رده و قال:

إن مزج الأضداد إن تم وفق مقادير معلومة وتوفرت له كل الظروف المواتية لا شك ينتج عنه خليط متجانس ويمكن أن يكون ذلك المزيج مغذيا ومفيدا كالحليب يخرج من بين فرث ودم.

على هذا المنطق كون الطاهر شخصيته المعتدة بجذورها الإفريقية الضاربة عميقا في باطن الأرض و فروعها العربية الممتدة عاليا إلى عنان السماء. لم يشغل نفسه بتلك الأصوات النشاز التي كان يسمع همهمتها هنا وهناك:

أمه سرية، حتى و إن تعلم لن يبلغ مراقي الشرف الباذخ الذي يورث كابر عن كابر.

كان يعلم أن هذه الأصوات مصيرها إلي زوال هي مجرد صدى للجهل الذي عشش وباض وفرخ في عقول البعض منذ أمد بعيد. حدث نفسه قائلا:

التعليم وحده من ينير ظلام تلك العقول التي تعيش داخل سرداب الجهل.

عقد حاجبيه لإحكام وثاق النتيجة التي توصل إليها وتثبيتها جيدا على ذهنه وقال:

نعم التعليم هو الحل. خيرا فعل الإنجليز عندما فتحوا المدارس والكليات المتخصصة لإنارة العقول.

ولكن.توقف عن التفكير قليلا فقد لاحت له عنّة لابد من إرضاء فضوله قبل الاسترسال أكثر قال معترضا:

ولكن التعليم وحده ليس بكاف. التعليم لن يفلح في ذلك الأمر.

أرخى العنان لفضوله الذي هو حتما قاتله إن لم يهتد إلى حل وقال:

من يزيل الغشاوة عن تلك العقول المتحجرة؟. العمدة مثلا كان يقرأ ويكتب و كذلك أبي الخزين وعمي الدخري كانا يقرأن ويكتبان بل كانا حافظان لكتاب الله ومع ذلك جميعهم كانوا لا يرون إلا لوني الأسود.

استطرد قائلا:

صحيح إن قيد المكية الذي كان يكبل الأيدي والأرجل قد فتح قفله وتحطمت سلاسله ولكن بقى قفله عصيا صدئا يقفل بداخله القلوب والعقول معا.

تأكد الطاهر من ذلك حينما ارتبط وجدانيا بابنه عمه الدخري فقد كان يكن لها في قلبه حبا كبيرا وكانت هي تبادله الشيء نفسه. وحتى لا يكون قاسيا على عمه الدخري فقد أعترف أنه لم يكن مستعدا حينها للزواج ولكن لا يجد تفسيرا واحدا منطقيا لعدم أخذ رأيه في تلك الزيجة التي تمت في غيابه. في حالات كثيرة مشابهة حدثت وتحدث مرارا في كل أنحاء البلاد لا يتم زواج البنت من شخص غريب إلا بعد أخذ الإذن من أبناء عمومتها العزاب، هكذا جرت العادة وفي مثل قريته بالذات فالأمر أشد، و لأن كثيرا من العادات صارت بمثابة العبادات لا يكتمل إسلام الفرد إلا بالإتيان بها على أكمل وجه لم يعلم لماذا تركت هذه العبادة في حالته بالخصوص.

سأل نفسه:

لماذا لم يؤخذ برأيي ولم يتم مشاورتي في هذه الزيجة بالذات و أنا ابن عمها الأعزب الوحيد؟

وهل لو كانت أمي امرأة أخرى غير رضينا سوف يكون هكذا الحال؟

أسئلة كثيرة طافت بذهنه وكانت الإجابة الوحيدة على كل تلك التساؤلات مهما حاول تزيينها أو إخفائها هي:

لا.

ذكرى ذلك اليوم ظلت عالقة بذهنه كبقعة الزيت على سطح الماء، تتمايل على سطحه لا تمتزج تماما به ولا تنفصل عنه ما تلبث أن تطفو على السطح كلما حركتها رياح النسيان. قد ترتج وتنفصل عن بعضها إلى نتف صغيرة تنتشر هنا وهناك، ثم ما تلبث أن تتجمع مرة أخرى على سطح قلبه الولهان.

(٦)

ما حدث ذلك اليوم يا سادتي غيّر نظرته إلى كثير من الأشياء، سوف اتركه يحكي لكم بنفسه ما حدث، فهو الوحيد القادر على تصوير تلك اللحظات العصيبة التي عاشها. حكى الطاهر عن ذلك اليوم و قال:

كانت نعمة أجمل بنات عمي الدخري الأربع، ست الجيل و زينب و النعمة و آخرهن أمونة زوجة ابن عمي عبد الله. ترعرعنا سويا كنت أكبرها بحوالي عامين. كانت تصفّ لي أباريق المسجد وترتبها لا فرجات للشيطان بينها كصفوف الصلاة و تمسك حبل الحمار بينما أنزل عن ظهره قرب الماء. كانت تنصف نصيبها من (قراصة) التمر التي كانت تصنعها أمها، نصف تدعني أكله وهو ساخن والنصف الآخر تضعه في لفافة من القماش وتدسه دون علمي بين وسادة السرج و جيوب الخُرج. نبتت بذرة الحب باكرا و شقت قشرة قلبينا تحاول النمو. ترويها دماء حارة متدفقة من قلوب نابضة بالحياة. شبت النعمة عن الطوق كنخلة سامقة في طرف الجدول تشرب من نزه مياها عذبة كلما عزفت الساقية للنيل لحنها الحزين. كانت النعمة آية في الجمال، وجهها كبدر منير في ليلة تمامه، شعرها المنسدل كشلالات من الحرير الناعم بعضه مجدول و بعضه ينساب مترقرقا بين جيدها العالي وصفحة خدها المياس، ثغرها كفرجة ضيقة في السماء أحدثها بريق أسنانها اللامعة، لا كالشهب الراصدة وإنما كالبرق الذي يتفجر من بين السحب. حينما يفتر ثغرها مبتسما تتخيل أن السماء قد فتحت جميع أبوابها وأنت ما عليك سوى الدعاء هي كالشمس المشرقة التي سطع نورها على الشخص المقرور. كالنار التي يومض قبسها في وجه الهائم بصحراء مترامية الأطراف.

في ذاك العصر الهالك و الشمس تسحب أشعتها المنهزمة أمام جيوش الظلام المحتشدة في ساحة الأفق، توقف لوري ود الفضل عند قهوة مرسال. قذفت بحقيبتي من على ظهر اللوري على الرمال ولحقت بها. كنت عائداً في إجازة طويلة بعد انتهاء امتحانات الثانوية العامة وكنت كالعادة مميزا فقد نجحت وبامتياز في جميع المواد، لا أخشى شيئا سوى أن تأخذني سكة التعليم بعيداً عن نسمتي الباردة. كنت سعيدا بنجاحي بالخصوص أنه سوف يكفل لي الدخول إلي مدرسة الزراعة في كلية غوردون التذكارية تلك الجوهرة التي يشع منها النور والتي أسسها الإنجليز تخليدا لذكرى الجنرال غوردون، لرفد دولاب العمل بكوادر وطنية. شاهدت من مكاني حيث كنت أقف وأنا أنفض ما علق بثيابي من غبار، حشدا من الناس وسمعت زغاريد فرح تصدر من ذات الحشد وتختلط مع إيقاع (الدلوكة) و صوت الغانيات يتصاعد مع الغبار إلى عنان السماء وثمة رجال يتقافزون عاليا في الهواء ويدقون أرجلهم كأوتاد على الأرض وظهورهم كانت عارية يقطر منها الدم، تلهبها سياط (العنج) تتركها كأرض جر عليها أحدهم سنة المحراث بلا سابق معرفة. وصبية صغار رأيتهم فرحين يتنططون بين أقدام الرجال والنساء. لوهلة حسبتها زفة فرح اجتمع فيها الجن والملائكة. من بين كل ذلك الضجيج، ميزت كلمات أغنية كانت تلوكها ألسن الغانيات بتلذذ واضح وكأنهن يردن إغاظة شخص ما يعرفنه جيداً. كانت كلمات الأهزوجة الشعبية تقول:

(بت عمو اخدوها الرجال).

(سجم آمو الما عندو مال).

من مكاني شاهدت العروسين. كان الحشد الجني الملائكي يزف ابنه عمي النعمة عروسا إلى النيل. كانت تلبس ثوبا أحمرا من (القرمسيس الهندي) وعريسها كان يلبس ثوبا أبيضا وعلى يده سوار من الحرير الأحمر مثبتة عليه خرزة خضراء ميزت لونها جيدا لأن العريس كان يرفع يده عاليا بكل الفرح الذي يسع المهنئين، وبيده الأخرى كان يحمل عصا صغيرة من جريد النخيل الأخضر وسيفا مشرعا لامعا لقطف ثمرات قلبي اليانعة. حانت من النعمة التفاتة ولما أبصرتني بتلك النظرة الفارغة كدت أتبخر في الهواء كالدخان وأنا أحترق في ناري.

كانت أول مرة أشاهد فيها منظر الدموع وهي متكلسة في مقلتيها كحبيبات البرد الصغيرة لا تهطل مطرا غزيرا يسيل جداول ولا تسقط فتذوب على الأرض. كانت نظرتها كالشاة التي ذبح وليدها وهي تقف ترقب منظر الدم يقطر من سكين الجزار و وليدها يرفس في الروح وهي لا تقدر على شيء سوى مراقبة خروج الروح التي رفسها برجليه وليدها قبل قليل ولا تعلم متى يأتي عليها الدور. كانت نظراتي معلقة إلى عقدة خيوط الحرير المربوط على معصم العريس كالمحكوم الذي علقت له المشانق وما هذا الحشد الكبير سوى أولئك المبتهجين بتنفيذ حكم القصاص. زفت نعمتي إلى عبد الرحمن ابن خالها تاجر القماش في سوق أم درمان.

يا الله ما أبشع الفرحة التي تصاحبها غصة. ألقيت بحقيبتي وتركتها في مكانها كالذي ألقى بالألواح حينما رأى قومه قد بدلوا ما تركهم عليه. و هرولت مبتعدا عن المكان ليس كما ألقيت القرب سابقا وهرولت إلي أمي في المخزن أنشد نور العلم. ولكن إلي المجهول. ساقتني أقدامي إلى المسجد، وجدت أبي الشيخ يجرد في مسبحته الألفية، كمن يعد إلى ما لا نهاية، ارتميت على صدره، سالت دموعي على كتفه.

قرأ الشيخ العشق الذي سال من عيوني وبلل كتفه وقال:

يا المبروك الدنيا دار فناء والنساء أرض صماء، فيهن (الأرض البور و البلقع و الكركجية و التي تختبئ بين شقوقها الحية الرقطاء).

سدت العبرة حلقي، خرجت كلماتي من بين النحيب، بعد النعمة لا في نعيم ولا هنا والدنيا صارت أضيق من خرم إبرة.

قال أبي الشيخ:

يا المبروك من فش (غبينتو خربت مدينتو). وتلا قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

وخزت على صدري موضع القلب بالسبابة عدة مرات وقلت:

التقوى في القلب والنعمة من داخل القلب الذي يتقي الله.

قال الشيخ:

قلبك بين إصبعي الله يقلبه كيف يشاء.

صرخت بعلو صوتي:

كنت أكر العلم هناك لكي أصبح حرا هنا.؟

قال الشيخ وكأنه يريد أن ينهي النقاش فقد رفع آذان المغرب:

الطاهر يا المبروك. تحرر من قيود روحك تبرأ جروحك.

ربت على كتفي و أضاف:

أرادوا كسر نفسك، فيضيق حلمك وتكسر قلمك وتغتال حلمك.

شدد علي بالقول وهو يطوي مسبحته:

امسك طريق القوم إلى أن تقوم الساعة تلقى الهناء أكوام.

نمت ليلتي في ظل القبة. رأيت في منامي أبي الشيخ يسوق خلفه حماره بيضاء تركب عليها فتاة كأنها ملاك هبط لتوه من السماء. كان شعرها متمردا يتطاير على وجهها المضيء. كان هناك ثمة وحوش تطاردهما يكاد ينجح الشيخ في أبعادها، شاهدته يسقط على الأرض أفلت الحبل من يده عدة مرات وهو يحاول التشبث به و من بعد ذلك اختفي الشيخ في هالة كثيفة من الضياء. تكرر ذلك الحلم عدة مرات إلا أن جاء ذلك اليوم والذي حدث ذلك اليوم سوف أتركه لأقصه عليكم في الوقت المناسب ولكن ليس الآن. منذ ذلك اليوم لم أعد إلى القرية مطلقا، همت على وجهي أنشد الخلاص في العلم.

يا الله.. يا الله..

يا ليله ليلك جنّ معشوقك آووه وأنّ.

لوزة قطن بيضاء سقطت في حقل الألغام

١

آه ما اقسي الجدار
عندما ينهض في وجه الشروق
ربما ننفق كل العمر كي نثقب ثغره
ليمر النور للأجيال مرة
ربما لو لم يكن هذا الجدار
ما عرفنا قيمة الضوء الطليق
أمل دنقل

٢

قبل أن تتحرر روحها من جسدها همست رضينا في أذن ولدها الطاهر قائلة:

اسمي (شواي جين روف). أحفظ هذا الاسم جيدا. (شواي جين روف). وتعني البقر الذي يدفع كغرامة في عرف قبيلتنا. قبيلة النوير.

أخذت نفسا عميقا كمن يستأذن ملك الموت لكي يمهلها قليلا من الوقت وقالت:

ولدت في قرية شمالي مدينة فنجاك جنوبي السودان. جدك (ميانج) كوال كان (كجور) القرية.

مدت يدها وقالت:

خذ.

ناولته خرزة من العاج، عليها رسم منقوش بحرفية عالية و أضافت:

هذه تعويذة جدك (الكجور) الحارسة صنعها بيديه جدك كوال والبسها إلى أبنائه قبل أن تتلقفنا أيادي صيادي البشر.

ابتسمت ابتسامه باهتة وقالت:

أني راحلة يا ولدي إلى السماء، فقد حانت لحظة الفراق.

لما أبصرت دموعه وقد ترقرقت في عينيه قالت:

اسمعني جيدا يا ولدي لن يفيد ألبكا، خذ هذه التعويذة وأبحث عن جذورك هناك بالجنوب. سوف يكون هذا الوشم ملاكك الحارس وخير دليل في رحلتك إلى الجنوب.

مسح الطاهر حبات العرق التي تفصدت في جبينها وقال:

حسنا يا أمي سوف أفعل ولكن لا داعي للحديث الآن، يجب أن تخلدي للراحة.

افتر ثغرها بنصف ابتسامة وقالت:

سوف أرتاح قريبا لا تقلق. وحينها أقبرني تحت شجرة (الهجليج) شرقي ضريح أبيك الشيخ، عله يشهد لي عند ربه بما رآه فقد كنت أسمعه يقول. (تشبه بالقوم وجا.جا.جا..).

أكمل الطاهر عنها ما عجزت عنه بسبب المرض ولغة الضاد:

تشبهي بالقوم يا أمي وجافي النوم، تحشري مع الحبيب المختوم.

تذكر الطاهر كل ذلك وهو ينثر على قبرها التراب، قيامها في ليالي الشتاء الباردة بكنس وتبخير المسجد والخلوة بدخان الطلح تذكرها أيضا. تحركت شفتاه وهو يعيد خرزة العاج داخل جرابها الجلدي بعد أن مسح عنها دمعته والغبار وضعها في جيبه و تمتم قائلا:

و أنا أشهد يا أمي.

٣

وصل الطاهر إلى مسقط رأس أمه بالجنوب. مسح على الجراب و سلمه إلى خاله كور الذي تفحص رسم أبوه كوال جيدا، عرف الوشم و لكنه أنكر حامله.

تساءل الخال كور وهو يتفحص رسم (الكجور) مرة أخرى وقال:

(مندوكورو) ما الذي أتى بك من الشمال؟

تذكر الطاهر سؤال المفتش الإنجليزي حينما كان صغيرا يجلب الماء بالحمار من النيل. قال له المفتش الإنجليزي يوما:

ولد جنوبي ما الذي أتى بك من الجنوب؟.

ضحك الطاهر من إجابته حينها فقد حدق في الخواجة مليا ولم يجد فيه شيئا غريبا سوى جواربه السوداء التي كانت تكاد تصل إلى الركبة و أجابه قائلا:

أقلب جواربك من الداخل للخارج. هكذا أنا أبدو ولكن قل لي يا خواجة ما الذي أتى بك من أقاصي البحار إلى أرض الأنهار؟

قال الخال كور بشيء من الضيق:

هيا قل لي من أنت؟

أنا ابن أختك (شواي) و أستطرد قائلا:

ألا ترى لوني ورسمي ؟

رد الخال كور ضاحكا:

أنت (تيوك) بلغتنا تعني بقر مرجوع.

قال الطاهر مستنكرا وهو يشير إلى بشرته السمراء:

وإن كنت أحمل دماءكم ولون بشرتي أبنوسي من أشجار غاباتكم.

تشاغل الخال كور بتلقيم الغليون محاولا تغيير مجرى الحديث:

صحيح إن لونك أسود مثلنا ولكن دمك يجري في جسد لا يدين بديننا و لسانك لا يتحدث لغتنا.

ضحك بخبث و أردف قائلا:

في دمك بقايا سيد و في لونك علامة القيد.

لم يستجيب الطاهر لاستفزاز الخال كور إنما رد قائلا:

أبي الشيخ كان دوما يقول (الدين المعاملة وأن القدر ظاهره أسود كالفحم وباطنه أبيض كالحليب).

أشعل كور الغليون بعد عدة محاولات فاشلة نفث دخانه في وجه الطاهر وقال:

أبي الكجور كان دوما يقول (مندوكورو لا أمان لهم. جلبوا تجارة الرقيق ومن دينهم لم نر سوى القيد وسلاسل الحديد).

لم يستسلم الطاهر المبروك رد قائلا:

لم يكن تاجر الرقيق سوى رجل يوناني أبيض بترخيص من رجل أبيض والاثنان كانا غريبان عن بلادي.

احتدت نبرة صوته قليلا وهو يقول:

نفث الخال كور بخار غضبه مع دخان الغليون الذي باتت ناره مشتعلة أكثر وقال:

لكن أهلك بالشمال كانوا الخيول التي سحبت العربة ورأس المال الذي باع واشترى.

كان الطاهر يعلم ما يعتري خاله كور فقد خبره وعايشه سنين طويلة، وانكوى بناره بين العظم والجلد و حفظ الدرس جيدا بين لونه ولوحه. ولكن برغم ذلك ظل الطاهر واقفا في مكانه ثابتا على رأيه لا يتزحزح قيد أنملة. كان الطاهر يدافع عن ذكرى أبوه الشيخ و تسامح أمه رضينا و وفاء توأم روحه وابن عمه عبد الله وقلة وعي والده الخزين. فبعد الذي حدث معه و عايشه طوال السنوات السابقة وبالخصوص ما حدث يوم زفاف ابنه عمه النعمة، وصل إلى قرار. وهو أن كل الذي حدث وما سيحدث في مقبل الأيام هو بسبب قلة الوعي. لذلك قرر أن ينشر الوعي وسوف يبدأ ذلك من هنا من الجنوب على أمل أن يحمل النيل موجات الوعي كما يحمل الطمي، كما تحمل رياح الجنوب زخات المطر شمالاً. نفث هواءً حارا من جوفه وقال:

آه. يا أبوي الشيخ، ليتك أتيت قبلي لهذه الأرض.

٤

انهمك الطاهر في أداء عمله ينشيء المزارع ويقدم خدمات الإرشاد للمزارعين بالحقول، ترك أمر خاله كور ليد الزمن على أية حال له ما يشغله وعلى حد قول خاله كور فهو (تيوك. بقر مرجوع) ومن كانت بها عرج حتما سوف تعود يوما للقطيع. كان ثمة ما يشغل تفكيره فقد تمادى الإنجليز في غيهم سادرين واردين. وإن كانوا سنوا القوانين التي قضت على تجارة الرقيق لكنها لم تقتلع جذورها من باطن الأرض فلا تلبث أن تنمو في مناطق أخرى بأفرع جديدة. وقد مارسوا سياسة الاستبداد بالرأي والأنفة عن النصيحة بلا خوف تبعه ولا لين سبقه. فضربوا سياجا من العزلة حول الجنوب وأهله في وجه رياح الشمال. إلا من الإرساليات التبشيرية المسيحية وتناسوا أنهم صادوا وتاجروا في أسلاف الجنوبيين زمانا طويلا. حالهم كمن يغتسل من نجاسته بماء ورد ابتاعه من مال نخاسته. كانوا مثل كلاب الصيد مدربة تدريبا جيدا من قبل أسيادهم في البابا العالي ولا فرق عندهم بعد اصطياد الفريسة إن طعموا من عظام صيدهم أو لحمه.

عرف الطاهر من خادمه الصبي كوانين أن الإرسالية الكاثوليكية فتحت مدرسه أولية و ابتعثت معلمات من الخرطوم لتعليم الفتيات وتدريبهن على بعض المهارات المنزلية مثل الطبخ وحياكة الملابس و التطريز وغيرها من الاهتمامات التي تهتم بها النساء عموما قبل الدخول إلى عش الزوجية. قرأ الطاهر في عيون الصبي ذات النظرة يوم رمى بالقرب على الأرض عند الجرار وهرول لأمه رضينا يلوك كلمة المدرسة يعلكها كقطعة من لبان عدني وصفت له كعلاج.

التفت الطاهر مخاطبا الصبي كوانين الذي وقف كمن ينتظر البشرى بعد نقله لأخبار سعيدة وقال:

غدا صباحا سوف نذهب سويا لكي أقيد اسمك ضمن تلاميذ تلك المدرسة.

قال الطاهر كلماته تلك بهدوء تام كالذي يربت على كتف الصبي ليطمئن قلبه. ألقى الصبي كوانين إناءه المليء بالماء على الأرض، لم يكترث لرذاذ الماء المتطاير وهو يبلل أوراق الطاهر وكتبه الموضوعة على الطاولة، هرول مسرعا. كان الطاهر يعرف تلك الهرولة جيداً. تلك هرولته لنور الحرية إلى أحضان أمه رضينا يوم تحرر عقله من ظلام الأمية.

٥

كانت الكنيسة تقع على تل مرتفع شرقي مدينة فنجاك تطل على نهر موسمي صغير. ترتفع مناراتها الثلاث من الطوب الأحمر عاليا، يجلس أعلى منارتها الوسطى صليب كبير معلق فوقه جرس مشدود بحبل يتدلى لأسفل البهو. يحيطها سور قصير من أشجار الباباي، غلفت بداخلها حديقة من زهور الريحان والفل وشجر الرمان. تتخللها ممرات صخرية تنمو خلالها أعشاب عنيدة لكنها مخضرة. تتوسط الحديقة شجرة مانجو ضخمة تشكل مظلة عالية تغطي بفروعها المكان. ينقسم المبنى الذي بني من أخشاب (التيك والمهوقني) إلى طابقين. طابق أرضي تحتله المدرسة وصالة التراتيل الكنسية ملحقا بها مكتبة وبعض الآلات الموسيقية ومكتب القس يوليوس وغرفة المعلمات في نهاية الممر وعلى يسارها دورة المياه.

طابق علوي. به غرفة القس وعلى الاتجاه المعاكس غرف المعلمات والابريشيات ومطبخ صغير.

في الفناء الخارجي توجد غرفة الخدم ومطبخ كبير. يساره حفرت بئر على عمق قصير ينتصب فوقها عمودان خشبيان يتعامد عليهما عمود آخر يتدلى منه حبل في نهايته دلو من جلد التيتل. الباب الرئيس تشكل من خشب البوص وهو دوما مشرع لكل ما يتحرك. كان المبنى مطليا من الخارج بالجير الأبيض. كان مبنى الكنيسة يبدو للناظر إليه من المدينة تحته كبيضة رخ عملاقة في عش مخضر. تجاوز الطاهر بوابة الكنيسة الخارجية وجد نفسه يمشي على ممر ضيق من الطوب الأحمر المحروق مرصوف بعناية فائقة يشق الحديقة الخارجية نصفين ومحاط بزهور الريحان من الجانبين. كان يتبعه ظله كوانين يهرول حينا ليلحق به ويبطئ حتى لا يتجاوزه أو يحاذيه أحيانا كثيرة.

كانت هي تجلس هناك خلف مكتب خشبي صغير خلفها نافذة تطل على منحدر من التلال الخضراء يلمع النهر من بعيد من خلال زجاج النافذة كسيف خرج لتوه من لفافة قماش خضراء. كان يتجمع من حولها أطفال المدرسة في حلقات دائرية كبذور زهرة الشمس الجافة. كانت هي تبدو وسطهم كلوزة قطن بيضاء وسط كومة من بذور القطن. بدت له من بعيد أشبه بنار القرآن في مسيد أبيه الشيخ و كأن الصبية يتحلقون من حولها كل ينشد ضوءه.

قرع الباب الذي كان مفتوح بلطف. كانت أناملها الرقيقة تراقص مفاتيح البيانو وجوقة الأطفال من خلفها ينشدون أغنية السلام.

لم يلقوا بالا لطرقاته المتكررة علي الباب. وهل يلتفت من كان في حضرة ملاك يلاعب مفاتيح آلة البيانو و يعزف بأنامله الملائكية لحنا من جنات الخلود؟!

وكيف للنساك العباد أن يستمعوا لصوت الأعواد وهم في خلوتهم المقدسة تلك؟

ألا ينجذب الدراويش وهم في حضرة الذكر، فتسموا أرواحهم من أجسادهم وتحلق عاليا في السماء؟

ألا تنجذب الفراشات للزهور اليانعة الندية؟

صفق يديه فتوقف اللحن فجأة وسكتت جوقة التراتيل، هبت هي من مكانها مسرعة تحاول إسكات أنفاس شعرها المتطاير بوشاح أبيض.

حياها بانجليزية. ظنا منه أنها أجنبية.

ردت التحية بأفضل منها قالت وهي تحاول إخفاء ابتسامة تسربت خلسة من بين شفتيها: (جيباك..جيباك). وتعني مرحبا ظنت أنه من أبناء قبيلة (الدينكا).

حاولت عبثا منع شعرها من تنشق الهواء المتسلل من الباب المفتوح على الحديقة والفناء الخارجي. دون جدوى فقد هرب من قبضة يدها لبى نداء الطبيعة وتسرب فرحا يرقص على خديها الأسيلين. أرجعت شعرها للوراء لما تمادى ووصل حد الطرب والانتشاء وتراقصت خصلاته منتشية بطعم الحرية على وجهها قالت وما تزال تلك الابتسامة المتسللة مختبئة في مكانها بين بريق أسنانها و ثغرها المفتر:

تفضل بم استطيع أن أخدمك يا سيدي؟

قال وهو يحاول عدم فضح أمر تلك الابتسامة المختبئة:

أبحث عن المعلمة. مريم؟

أنا مريم !

مرحبا. أنا الطاهر. في واقع الأمر كنت أريد......

قاطعته قائله:

تفضل إلى الداخل.

تبع حركة يدها و قلبه يخطو أولى خطواته نحو قلاع الحب الحصينة. سارت أمامه في ممر ضيق يؤدي إلى مكتب صغير أسفل الدرج. أعدت له كوبا من القهوة التركية.

ها أخبرني سيدي ماذا كنت تريد من مريم؟

كانت قد تسربت رائحة القهوة إلى موطن الكيف في دماغه، تناول رشفة طويلة قال وهو يضع الفنجال على الطاولة:

في واقع الأمر كنت أريد معرفة متطلبات تسجيل الصبي كوانين بالمدرسة الملحقة بالكنيسة؟

و أشار بيده إلى الصبي الذي كان يقف عند الباب و عيونه معلقة إلى جمع من التلاميذ، كانوا يلعبون في الفناء الخارجي.

أردف الطاهر قائلا:

فقد تعلق قلب الصبي بالعلم ولعلك أكثر من يعلم أن في هذا العمر يحتاج الطفل إلى معلم ينقش على صخرة عقله حروف الكلام.

هل هو ابنك؟

تساءلت وهي تعيد تعبئة كوب القهوة مرة أخرى. لم يبد أية اعتراض على كوب ثاني من القهوة. فقد كان عقله محتاج جدا لكوب ثاني و ثالث وربما رابع حتى يستطيع إدراك كنه هذا الجمال الرباني الباهر. قال:

هو ابني الذي لم أنجبه.

اندهشت من إجابته. استدرك قائلا:

هو ليس ابني بالمعنى المعروف ولكن الصبي كوانين بمثابة ابن لي. فقد ماتت أمه وتركه أباه ليتزوج بأخرى وتربطني صداقة قوية مع خال الصبي الذي يعمل فراشا بالمكتب حيث أعمل و حينما علمت بمصيبته عرضت على خاله مساعدته في تربيته فوافق على الفور ومن يومها لا يعلم الفتى في هذه الحياة أبا له غيري.

انشغلت هنيهة بالبحث عن بعض الأوراق وقالت:

يحتاج أهلنا لكثير من الجهد والعناء، فقد عانوا أصنافا من الظلم و الاستعباد طيلة سنوات فوق طاقة البشر، على أية حال ثمة عمل كثير ينتظرنا.

وافق على رأيها بحركة رأسه، برغم من دهشته من قولها أهلنا.

خذ.

مدت إليه ورقه وأردفت قائلة:

عليك تعبئة البيانات في هذه الورقة وإرجاعها في أقرب وقت.

يجب علي كوانين الحضور في السادسة صباحا، تقدم الإرسالية وجبة الفطور والغداء عليه تدبر أمر وجبة العشاء و نومه ليلا.

شكر صنيعها وهو يقلب في الأوراق. قالت وقد انفرج ثغرها بكل الابتسامات التي كانت تنتظر فرجة صغيرة لكي تنفذ عبرها لتلحق بتلك الابتسامة الشقية التي تسللت أولا:

لم أفعل سوى الواجب. علينا شكر الرب وراعي الكنيسة.

مدت يدها مودعة وهي تحاول جاهدة إبعاد شعرها الذي حاول إخفاء فلجة أسنانها البيضاء.

٦

في طريق العودة للمكتب حاول الطاهر مرارا إبعاد الناموس وابتسامتها البيضاء المتطايرة مع شعرها من أمام وجهه بمنديله دون جدوى. تساءل ضاحكا:

من قال إن الإنجليز شر؟!

أردف قائلا:

صحيح أنهم حصدوا الغلال وجنوا الثمار وتركوا لنا الأشواك والقشور، ولكن يبدو أنها لوزة قطن بيضاء سقطت سهوا.

يا ليلة ليلك جن

معشوقك آووه وان

تلك كانت لياليه بمسجد أبيه الشيخ مع الدراويش العاشقين للذكر، أما ليلته اليوم طويلة حالكة السواد.

رجف الدم في قلبه مثل ماء القرب يريد الخروج، وقتها كان يبطئ خبب حماره ليقل رج الماء.

فما يهدئ ضربات قلبه اليوم ليقل تدفق الدماء؟

قضت مريم ليلتها تكري النوم بالصلاة والتراتيل و تستعجل الوقت للصباح. أرادت أن تكريه أو ترشيه ما عرفت، يأبى أن يفارق خيالها ذاك الأبنوسي قليل الكلام. فيه شيء مختلف لم تعرف كنهه، هو من هنا أم من هناك؟ ذاك الأبنوسي شمالي الطباع جنوبي الانطباع !

أبوه الشيخ كان دوما يقول:

الطاهر مبروك. الطاهر فيه شيء لله.

هذا الشيء الإلهي تسرب إلى حنايا روحها نقر على قشرة قلبها يريد الدخول، انحنى فرخ صغير داخل قلبها يبحث عما فقد يريد الخروج، تقابلا عند العيون.

أمسكت مريم القمر برمش عيونها نظمت به عقد للنجوم، حتى إذا ما بدأ الشفق ألبسته عقد النجوم ونامت.

٧

صبيحة اليوم التالي أرادت وضع بعض العطور والمساحيق تذكرت لسان الأم ليليان السليط تركتها في مكانها على المنضدة. مشطت شعرها المتمرد للوراء وحزمته كعكة. كتمت أنفاسه جيدا هذه المرة بقطعة حرير بيضاء، بدت كصورة مريم العذراء.

وصل الطاهر برفقة الصبي كوانين، حملته رياح اللهفة على بساط الشوق. تبادلت عيونهما السلام وثغراهما الابتسام. أكملت مريم قيد كوانين بالصف الأول، فرحت أجنحة الصبي الأسود للحرية فطار إلى الفناء الخارجي يلعب مع بقية الصبيان.

جلس الطاهر على المقعد المقابل وقد ضاع منه الكلام تفرس وجهها. لونها ذهبي عيونها واسعة سوداء. أعيت فراسته. أهي من جنوب إيطاليا؟ جنوا أم فينيسيا . لا هي إغريقية ربما اختلط دمها بالرومانية. في دمائها لون حام. قال محدثا نفسه:

إذا هي إنسية، رومية، إغريقية زنجية وبعض جنية.

تحدثا عن الجنوب وبؤس حاله، التعليم واستحالة انتشاره دون جهود حكومية مع تضافر جهود و عقول أبناء البلد المخلصين. غافلهم الزمن فمضى مسرعا هكذا عاداته ومن ترك عاداته نقصت سعادته. افترقا على أمل أن يعود الطاهر لأخذ كوانين في طريق عودته من العمل.

تبعت مريم خطواته من النافذة حتى انحناءة الممر الخارجي وقد راهنت قلبها أنه سوف يلتفت سدت رهان قلبها ابتسامة.

٨

مضى عام كامل منذ أن سقطا في جب الحب. تعلم الصبي كوانين حروف الكلام وتعلقت روح الطاهر ومريم بحبل الغرام المتدلي إليهما من قبة السماء. أفاض عليهما الحب كما أفاض على من حولهما من البشر والشجر والحجر. لم تترك السماء أرضا وإلا روتها ولا جبل وإلا غسلت سطحه وألبست سفحه حلة من الخضرة والبهاء. تفتحت الأزهار وأينعت الثمار.

سألها الطاهر ذات مرة وهما يجلسان أسفل شجرة المانجو الضخمة التي كانت تتدلى ثمارها كقناديل خضراء:

حدثيني عنك قليلا؟

كان قلبه وروحه يعرفانها من زمان لكن ذاكرته لا تعرف سوى الآن.

ضحكت وهي تشم عبير ثمرة مانجو سمكية خاطفة لونين وقالت بدلال ظاهر:

ألا يكفيك ما عشناه سويا خلال عام.؟!

و أضافت وهي تصطنع الجدية في حديثها:

مريم فينوس، الابنة الوحيدة لمحاسب يوناني قدم مع الأتراك. عمل والدي بعدها بالتجارة تحديدا في تجارة (الميني) فاتورة. كان يستورد الحرير والقماش ويقوم بتصدير سن الفيل وريش النعام. ضحكت بسخرية وهي تقول:

الاسم الحركي لصيد وبيع الإنسان. لما دحرت التركية أمام جيوش المهدية صودرت جميع أملاكه و جر من قفاه مع تعيسي الحظ إلى سجن (الساير) في أم درمان.

تحكي أمي عن ذلك اليوم من عام ١٨٨٥م وتقول (كنا نسكن في الحي اليوناني غرب السوق وسرايا غوردون ولما كان بيتنا غربي الحي وهو بالتالي أقرب إلى الضفة الشرقية للنيل، كنا أول من اكتسحه سيل الدراويش المتدفق شرقا نحو صيده الثمين. قتلت سيدتي تادرس زوجة سيدي فينوس، ارتمت بجسمها علي وعلى سيدي فينوس. غاص الرمح في ظهرها من الخلف و خرج من صدرها أصابني الرمح في خدي الأيمن مخلفا ندبة سوف تظل كوشم لا يزول).

الجيوش المنتصرة عندما تدك بسنابكها المدن والقلاع لابد أن يترك الجند توقيعهم على النساء والمتاع. النساء البيض أخذن سبايا للأمراء وقادة الجيش، أمي شول تشاغل عنها الجنود بما هو أبيض لامع، تركوها مكانها كسقط المتاع.

قضى أبي زهاء الخمس سنوات في سجن (الساير)، كانت تزوره من حين لأخر خادمته المخلصة شول. كانت تحمل إليه الطعام والأخبار. قد يتحمل الإنسان السجن والسجان لكنه لا يقوى على تحمل انقطاع الوصل عن ذكرى الحبان. كانت خادمته شول ذكرى أيام هناءه، مع كثير من الرشا للجنود وبمساعدة قريبات أبي من أخذن سبايا وأصبحن محظيات لدى الأمراء وقادة الجيش، خرج أبي من سجنه. عينه خليفة المهدي محاسبا في بيت المال. حيث كان يسكن في حي المسالمة غربي قبة المهدي شمالي سوق أم درمان.

بعد مضي عام من سقوط راية المهدية في كرري وانكسار القبة تزوج أبي خادمته شول ولدت عام ١٩٠٠م خليط بين نهرين. نهر يوروتاس الذي يتدفق منحدرا جنوبا من جبال البرنون وتيجتوس شمالي اليونان ونهر النيل الذي ينبع من بحيرة فيكتوريا و يمشي جنوبا سابحا في خيلائه باتجاه الشمال ليكون اللقاء في الخرطوم، وكنت مريم صنوبرية الملامح أبنوسية القوام.

قالت أمي أيضا:

حينما وضع الجندي الباشبوزقي قيده على يد أختها اليسار مدت الطفلة شول يدها اليمين للقيد وعقلها الصغير يحسبه طوق نجاة. فك تاجر الغلال الأمدرماني قيد أختها مقابل ريال سلطاني مخروم ورفض أخذ الطفلة شول فوق البيعة وهو يذم الخواجة فينوس ويقول:

من يشتري طفلة صغيرة تبلل اللحاف؟!

تلفت قلب أخت شول المجروح بين الزحام . غافلت عيونها الفزعة ساقي جمل العصارة في إحدى لفاته، كحلت عيونها بآخر سواد من لون أختها شول. كانت عيونها وجلة يتدلى عقد سن الفيل على صدرها العاري و يرقص الذباب على مزيج دمعها وسائل أنفها عند شفتيها اليابستين. غاصت الأخت الكبرى في لجة القيد حملتها دوامة العبودية بعيدا، تركت أختها شول كالبهيمة المجلوبة للسوق تنتظر الشاري.

صدقت نبؤه تاجر الغلال، جنحت الشمس للمغيب ولم يسوم أي شاري شول. أخذها فينوس باقي بضاعة إلى زوجته تادرس .فكت السيدة تادرس قيدها و غسلت عيونها الذابلة و شطفت شعرها المفلفل. دهنته بزيت الزيتون ما عرفت تمشطه تركته واقفا لأعلى كالمسامير. بعد لحظات صفا لونها الأبنوسي الرائق، أبصرت عيونها دنيتها الجديدة، لمعت ابتسامتها البيضاء أضاءت كهف الأمومة في قلب السيدة تادرس.

المجد لله في الأعالي وعلي الأرض السلام وبالناس المسرة.

تساءلت السيدة تادرس وهي تصب الماء لفينوس لغسل يديه بعد وجبة العشاء.

لم لا تتركها لي.؟

أردفت على عجل:

لم يهبنا الرب طفلة بيضاء فلا مانع من قبول عطية الرب ولو كانت طفلة سوداء.

ناولته المنشفة، مسح يديه و تفل ما تبقى من ماء:

لا مانع.

أخذتها السيدة تادرس إلى الكنيسة، علمتها الكتابة، الطبخ و الحياكة. كانت السيدة تادرس مثالاً للأم الرءوم، كل سكان الحي شهدوا بذلك لو لا اختلاف اللون لحسبت أن شول هي بنت السيدة تادرس التي حملتها تسعة شهور في رحمها وأرضعتها الحليب من ثديها، ما أجمل امتزاج الأضداد.

حينما بلغت شول العاشرة من عمرها، فدتها السيدة تادرس بروحها، تلقت الرمح في ظهرها بدلاً منها. حفظت شول عهد أمها تادرس، فتزوجت سيدها فينوس وأنجبت له مريم.

٩

نشأت مريم في الحي اليوناني بالخرطوم حينما بلغت الرابعة عشر رأى أباها فينوس بخبرة يوناني عجوز خطوات عيون الجند وسيل لعابهم على نهديها المتمردين على حدود جسدها الأبنوسي البض. كان يرى تلك الخطوات صباحا وهي في طريقها من البيت إلى الكنيسة الكاثوليكية على شارع النيل. كان قلبها يرقص فرحا بينما جسمها يرتعش طربا جراء تعليقاتهم وهم في طريقهم للسردارية جوار الكنيسة وكان فينوس يراقب سيل لعابهم مساءً وهي تساعده في صف بضاعته على أرففها في متجره الكائن بسوق العطارين.

خاف فينوس عليها من شيطان التفاصيل الكامن داخل عيون الرجال ذلك الذي يتحين الفرص للانقضاض، فلا تؤمن عيون الجنود بعد تعبئة بطونهم من بار النادي اليوناني القريب من دكانه. حمد الرب أن زهور مريم لم تتفتح في زمن المهدية قال في نفسه:

لكان التهمها البرابرة الأوباش وهي نيئة، يا جريان لعاب سعارهم على كل الأجساد البيضاء. حمداً للرب.

رسم علامة الصليب أمام وجهه. طرد وسواسه من اليمين عاد إليه مرة أخرى من جهة اليسار تنهد تنهيده عالية وقال:

آه يا يسوع امنحني قوتك، لو عاشت مريم زمن خليفة مهدي الله لصارت مثل بنات عماتها محظية لدى أحد الأمراء أو قادة الجيش ولشوهوا أعضائها التناسلية بدعوى دخول الإسلام، حمدا للرب. امنحني القوة يسوع.

رسم علامة الصليب أمام وجهه الشاحب عدة مرات.

أخبر الخواجة فينوس صديقه الأب يوليوس بمخاوفه تلك وهما يجلسان أمام متجره في إحدى ليالي الشتاء، قاسمه الأب يوليوس خوفه. مال عليه القس العجوز وهمس قائلا:

الحكومة البريطانية بصدد إصدار قانون يمنع تواجد التجار الشماليين المسلمين بجنوب البلاد. سمع ابن أخي سوارس بعض الجنود وموظفي الدولة يثرثرون في باره بعد أن امتلأت بطونهم نبيذ.

وضع فنجال القهوة من يده وكأنه يريد أن يقول شيئا مهما مال على فينوس وقال:

سمع ابن أخي أيضا أنهم سيرسلون بعثات تبشيرية إلى تلك الأنحاء، الناس في تلك البلاد الحارة محتاجين لتعاليم الرب. و الكنيسة بدورها مهتمة بنشر الديانة المسيحية. لا يمكنني الوثوق في كلام سوارس ابن أخي فهو أحمق ثرثار. ثمة أمر آخر وهو تقلبات الحكام، تارة يقولون إن المديريات الجنوبية هي تتبع أداريا للسودان ثم بعدها يقترح أحدهم تبعيتها إلى أوغندا.

قال بحنق ظاهر:

هؤلاء الحكام الحمقى لا يستقرون على رأي واحد، لا تروق لي أبدا سياستهم في ذلك الجزء من البلاد.

صمت القس العجوز يوليوس قليلا بسبب نوبة الكحة التي داهمته. أسرع إليه فينوس بكوب الماء. ها هيا أكمل يا أبونا.؟

مسح القس يوليوس دموعه التي سالت بسبب نوبة الكحة و خفض صوته صار همسا خوفا من نوبة كحة أخرى وقال:

على أية حال غدا سوف تظهر الحقائق كاملة لا داعي للعجلة. ها تذكرت لماذا لا ترافقني مريم في بعثتي إلى مدينة فنجاك ؟

قال كلامه الأخير وهو يمسح على لحيته البيضاء واستطرد قائلا:

ما يؤخرني هو مباركة ودعم البابا العالي قريب الوصول، بعدها ننطلق تحرسنا عين يسوع.

لمعت الفكرة في عيني الخواجة فينوس الغائرتين كعيني قط سيامي عجوز. خمسون عاما قضاها الخواجة فينوس في بلاد السودان بين التركية والمهدية وأنجلو مصرية، كانت كافية لكي يعرف الخواجة العجوز إنسان هذه البلاد. ضحك حتى سالت دموعه، حدث نفسه قائلا:

يا لسخرية الأقدار خواجة فينوس يبحث عن حماية ابنته الوحيدة من الجنود البيض عند صيده القديم حفدة من باع أسلافهم السود.

صرخ بعلو صوته:

أمنحني القوة يسوع تمجد اسمك في السموات أمنحني القوة.

ما عرف الخواجة فينوس أن قدره صنعه بيديه. صحيح أنه حماها من الجنود الإنجليز لكنه أرسلها إلى ابن صيده (شواي جين روف).

١٠

بعد نهاية أعياد ميلاد ١٩١٦م انهرت الباخرة من (الاسكلا) بالخرطوم متجهة جنوبا وعلى متنها الأب يوليوس وبعثته التبشيرية برفقتها مريم. كان فينوس قد أخبر أمها شول من قبل بمخاوفه وأنه انتصح بنصيحة القس يوليوس. مؤمنة بإرادة الرب قرأت خادمته المخلصة شول تكفير ذنبه القديم في عيونه الحزينة. كانت شول موقنة أن أهلها السود آمن على بنتها من أسيادها البيض.

مضي الأب يوليوس زهاء العامين، يحاول جهده دعوة رعاة البقر، الحفاة العراة، صيادو الأسماك والأسود إلى دينه الجديد.

قضت مريم نصيبها من تلك الفترة بين تدريس أطفال القرى اللغة الإنجليزية والتراتيل الإنجيلية و توطيد علاقتها مع السكان المحليين وزيادة معرفتها بلغة أهل البلد و ممارسة هوايتها في الرسم الذي وجدت له مرسما كبيرا من طبيعة الدنيا الجديدة الساحرة.

إلا أن جاء ذلك الأبنوسي دقيق الملامح شمالي الطباع جنوبي الانطباع فتغير مجرى الدم في عروقها وزاد خفقان قلبها.

(ولما كانت بلاد السودان حارة فإن الحر استولى علي تكوين أمزجة شعبها فكانت أرواحهم وأبدانهم أشد حرا فلذلك تكون أسرع فرحا وسرورا وانبساطا و يجي الطيش من ذلك).

بن خلدون..

هذا الكلام يوضحه أكثر خطاب الأب يوليوس الذي أرسله إلى الكنيسة في الخرطوم. بعث الأب يوليوس أول خطاباته وآخرها إلى الكنيسة الأم بالخرطوم بعد خمس سنوات. قال فيه وهو يجاهد الإمساك بالقلم بيد وطرد أسراب البعوض المتطفلة لمعرفة محتواه باليد الأخرى

بسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين.

إلى الحبر الأعظم مع كل الحب والاحترام.

لا فائدة ترجى من دعوة برابرة حفاة عراة هم أقرب للأنعام منه إلى دين يسوع و إن كنت أرى بصيص من نور أمل في نفق حياتهم المظلم فسوف يكون ذلك من خلال أطفالهم فهم أملنا الوحيد. أما أسلافهم فانهم كأشجار ميتة وهي واقفة نخر جذورها السوس، فيجب أن تطعم إلى نارهم المقدسة. لقد رأيت بأم عيني كيف قطعوا يد ذلك المفتش الإنجليزي المسكين لمجرد أنه ضرب ثورهم المقدس لتنحيته عن الطريق. لم ينفع تعلمه لغتهم ولا شفعت له زوجته الجنوبية. المسكين حزو يده من مرفقها واستخدموها مطرقة لطبولهم الجوفاء وهم يشربون (المريسة) و يتغنون ويرقصون وكأن شيئا لم يحدث. على أية حال ينتظرهم غضب الإنجليز.

أبعد بعوضة من أمام وجهه بعد أن خرمت طبلة أذنه بطنينها وهو يسب أمسه ويلعن يومه ويندب حظه العاثر. حدث نفسه قائلا:

كأن أوربا بأثرها ثملت من تعاليم المسيح لكي يزج بأمثالي إلى هذا المستنقع المليء بالآثام.

مسح حبات العرق من على جبينه صفق بعوضة أخرى. فتح يديه وجد نفسه صفق الريح. عدل السراج رفع خيطه المتآكل لأعلى. بلل ريقه الجاف بماء، لم يطف نار جوفه، سال الماء على لحيته البيضاء تركه يدمع على الورقة. أمسك بالقلم مرة أخرى تأوه ثم كتب التالي:

ملحوظة:

كل هذا لا يقلقن بقدر مفتش المركز الزراعي الطاهر. لقد دك ذلك الفتى الأبنوسي حصون قلب ملاكنا الطاهر مريم وأوقد نيران عشقه الحمراء وغرس رايته الخضراء ترفرف عاليا في قلعة قلبها الحصين. وإني لأكاد أسمع ضربات الطبول وأصوات الذكر. حي قيوم، حي قيوم. تنبعث مع أنفاسها و أكاد أرى تعلق قلبها به كالدرويش المتعلق بقدمي مولاه.

(أبانا الذي في السموات ليتقدس أسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك علي الأرض أعطنا خبزنا كفاف يومنا وأغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نحن نغفر لمن أخطاء وأسأ إلينا. ولا تدخلنا في التجارب لكن نجنا من الشرير)

آمين.

يوليوس تادرويس. مدينة فنجاك.

١١

لم يغضب الإنجليز لمقتل المفتش الإنجليزي بقدر غضبهم من استخدام يده مطرقة للطبول يرقص على إيقاعها برابرة سود. أرسلوا غضبهم شهبا من الجو تساقطت على رؤوس الجنوبيين فقتلت كل شيء يتحرك على وجه الأرض وأحرقت الغابة.

قاتل الزنوج المذعورين بضراوة. كانوا كالنمل الأسود ينسلون من جحورهم إلى حتفهم. حملوا حرابهم ونبالهم و أشعلوا نارهم. تجمعوا حول النار كقبائل الهنود الحمر ينشدون الموت. كانوا مبتهجين وكأنهم في ليلة فرح كبير يرقصون رقصة الحرية أو رقصة الموت لست أدري. شربوا جرار (الكجومورو). أرووا ظمأ نفوسهم التواقة للحرية، دلقوا ما تبقى على النار و لونوا أجسادهم السوداء برماد النار الأبيض. خرجوا مصطفين تجمعهم عصا (الكجور) العظيم (وون دينق). كانت نبوءته الساحرة تمنحهم قوة خارقه متمردة. كانوا يرون روح (الكجور) متمثلة في ابنه وهو يتقدمهم إلي يوم الخلاص، إلى حتفهم الأكيد. تقول نبوءة (الكجور وون دينق):

(ستخوضون حروبا كثيرة تسيل فيها دماء غزيرة. إلا أن يأتي رجل اسمه من أسماء البحر يكتب بيده الشمال حروف الأمة الجديدة. يقود شعبه لحرب كبرى بين نهرين يموت فيها. يخلفه الأفلج المختار منكم ينهي الحرب ويقود البلاد إلى سلام كبير).

قاتل الخال. ميانج كور بضراوة فقد أربعة من أبنائه العشرة وكثير من أبقاره لا يعرف عددها لكنها سدت مجرى النهر. لم يكسروا عزمهم عمدوا إلي قتل روحهم المقدسة. نصبوا دروة كبيرة وأمطر الجنود القادمون من الشمال أبقارهم مطر الرصاص . لم تقتلهم الآلة الحربية فقط و لكنها بذرت بدخانها أرواحهم بذورا للفتنة ليوم الحصاد الأكبر، سقطت الراية، أخذ الإنجليز ابن (الكجور) و عصاته المقدسة أسيرين إلى بريطانيا وساقوا ما تبقى حيا من القبيلة الثائرة إلى أرض سهلا لا مرعى فيها ولا ماء. انطفأت فوهة بركان الغضب الثائر. ولكن ظلت ناره متقدة بداخل النفوس يتراكم بخارها يريد الإنتفاث.

الفرح القادم من الجنوب

١

أما الطاهر ومريم كانا كعصفورين هبطا من عش الجنة، أخذهما تيار الحب بعيدا. حملهما على أجنحة السعادة هبط بهما على صخرة الجرانيت الكلسي الأملس التي كانت تشتاق لحكاياتهما، فوق هامة الجبل الذي يحرس السحاب من السقوط على بيوت المدينة وأكواخها. كانت بيوت المدينة تبدو تحتهما كأعشاش نمل نبتت على وجه الأرض. كانا يشاهدان أطفال المدرسة والسكان أسفل منهما وهم يتحركون كأنهم نمل أسود يدب على الأرض.

هناك بالجنوب قيد الحب قلبي الطاهر ومريم بحبله المتين وكبل روحيهما بعهوده ومواثيقه الغليظة، غاصت عيون الطاهر السوداء في ثمارها اليانعة البيضاء. تلاقت الأرواح فسمت الأجساد عن ملذاتها الشهوانية من عالم الأشباح الشيطاني إلى عالم الأرواح الملائكي و تسامت الأنفاس و طاف شذا عبيرها فسكرت الأنفس المتصاعدة مع الأرواح إلى عنان السماء.

سألها الطاهر ذات مرة. من أي زمردة نحتت الملائكة جسدك البض؟.

ومن أي الدرر درت ابتسامتك البيضاء؟.

كاد أن يعبئ روحه من نبعها وسيل أنوثتها المتدفق جاره. تذكر كلام أبوه الشيخ . (أمسك طريق القوم إلى أن تقوم القيامة، تلقى الهناء مكوم أكواما). توقف الطاهر ومسك طريق القوم لكي يصل إلى هنأه المكوم هناك.

سألته مريم وهي تعيد ترتيب شعرها المتمرد، حزمته عبثا حاولت تكبيل ضفيرتيه للوراء،غافلها هرب خلسة منسدلا و اندلق على ظهرها، سال وصل حتى عجزها ترك قيده حزينا على كتفها:

ها أنت بت تعرف كل شيء عني تقريبا وماذا عنك؟

حدق الطاهر مليا في السحب التي كانت تخدم عليهما برذاذ المطر، أخرج من جوفه أهات بقشيشا للسحب وقال:

لا تختلف قصتي عن قصتك كثيرا سوى أن ذمام قيد القلادة ساق أمي رضينا شمالا إلى الحزين وكان ذلك سداد لدين قديم لدى تاجر غلال من مدينة أم درمان. فكنت أنا مزيج من غضبين. غضب أبي الخزين من النساء وغضب أمي رضينا من عبودية الإنسان. أنا الطاهر ود الخزين، انطفاء شعلة نارين. نار شوق الخزين للغلام ونار العبودية التي حرقت قلب أمي رضينا. خرجت إلى هذه الدنيا حي من قناة أبي وقلبه الميت وموت أدمية أمي وروحها الحية.

ليس لي صورة عائلية بإطار مزخرف تجمع أبي وأمي وهما متماسكان وأنا بالوسط أكاد أبكي من الضوء المسلط.

لم يكن لي غرفة بسرير نحاسي تتدلى من سقفها النجف وعلى جدرانها المطلية معلقة التصاوير والرسومات والتحف.

لم يكن لي بيت رغم امتلاك أبي لأربعة بيوت.!

نمت على رمال المسيد وسعف النخيل.

ألحف لحاف تدثرت به، جوالات البصل الفارغة.!

أرتب مرتبه نمت عليها جوالات تبن الكزبرة.!

كنت أكل أي شيء يصادفني، أنام في أي مكان، حتى إني نمت يوما على سيقان الذرة الشامي اليابسة المصفوفة على رأس (الكر).

ضحك وقال:

و لكني لن أنسى يوم نمت على ظهر حماري وأنا أرد النيل. يومها سقطت علي أعشاب (اللصيق) تحتها كانت تنمو أعشاب (الضريسة) لها أشواك صغيرة حادة، قضيت يومي عاريا بدون جلبابي وكدت أخلع سروالي.

أغرته ضحكة مريم البيضاء ليحكي المزيد. لا يريد أن ينطفئ نور ضحكتها بعد أن أضاءه. ضحكتها كانت كنجم ساطع. استطرد قائلا:

في يوم شاتي تقاسمت وثعبان كبير الفراش كعاشقين. أغرته أنفاسي الدافئة وحرارة جسمي و أنا بدوري استلطفت جلده الناعم الأملس. غير أن رائحته كانت عطنة مثل جذور شجرة السنط.

جحظت عيونها وقالت:

ها وماذا فعلت ؟

ضحك كطفل غرير وقال:

أبدا. لم أفعل شيئا. صحونا من نومنا مذعورين. كل واحد منا فر في اتجاه يحاول ستر عورته.

كادت مريم أن تسقط من الضحك لو لا أنها تعلقت بكتفه. قال وهو يغالب نوبات الضحك:

في الصباح أخبرت أبوي الشيخ. قرأ على راسي آية الكرسي و يسن والمعوزتين وتحسبن وتفل وقال. (يا المبروك أجرد الحبة ومد الحبة، لوك الحبة وما تخاف الحبة). من يومها لم يلدغن أو يعترض طريقي ثعبان.

٢

فالجنوبي يا سيدي يشتهي أن يكون الذي لم يكنه..

يشتهي أن يلاقي اثنين

الحقيقة والأوجه الغائبة

....أمل دنقل...

٣

قال الطاهر:

أنت يا مريم حقيقتي ووجهي الغائب.

تلك الكلمات التي قالها الطاهر في آخر لقاء جمعهما كانت ترن في أذنها كجرس لسيمفونية رائعة، ظلت تنساب موسيقاها في حنايا روحها وتدغدغ مشاعرها طوال الليل. في مساء اليوم التالي أنهت مريم تدوين ملاحظاتها على آخر كراسة صفته فوق سابقيه نحتها جانبا. أطفأت السراج صعدت الدرج حيث غرفتها وجدت شريكتها بالغرفة كاثرينا على سريرها تستدعي النوم بكتاب قديم. ما أن دلفت مريم وقبل أن توصد الباب خلفها بادرتها كاثرينا بالسؤال.

من هذا الأبنوسي فارع الطول؟

ردت مريم وهي تتشاغل بالبحث عن فستان نومها وسط مجموعة من الفساتين المعلقة خلف الباب: ماذا به؟

فتحت إجابتها صمام حب الاستطلاع لدى كاثرينا غير محكم الغلق. وضعت كاثرينا الكتاب والنوم القادم من بعيد أسفل المخدة. قفزت من على سريرها وصل شعرها الكستنائي إلى عجزها قبل أن تصل أقدامها للأرض اقتربت من مريم ويديها تعيدان نظم شعرها ضفيرة واحده كانت عيناها مثبتتان على وجه مريم تبحثان عما تخبئ عيون مريم قالت بنصف ابتسامة:

أرى اهتمامه بك يزداد يوما عن يوم وأنكما تبحران بعيدا في بحر لا له ساحل ولا مرفأ.

قبل أن تهرب عيون مريم من نظرتها الفاحصة. أردفت كاثرينا قائلة:

أنه الحب يا مريم و إن ما اقرأه في عينيك هي سطور الغرام. واشتم في أنفاسك رائحة الهيام. مهما حاولت اخفائها لا سبيل. إنها نفاذة كرائحة الفينول. مسكرة كرائحة نبيذ فرنسي معتق من مئات السنين.

كاثرينا كوستا. ابنه بائع الجبن والزيتون والمخللات. كان دكانه بالناحية الجنوبية من سوق البهارات، على الشارع الرئيس المؤدي إلى حي سلامة الباشا ومحطة السكة حديد جنوبا. تركتها أمها وهي ابنة أربعة أعوام وفرت هاربة إلى اليونان خوفا من انتقام الدراويش البرابرة من انتصارات كتشنر وتقدمه جنوبا في زحفه تجاه مدينة أم درمان. في تلك الليلة خرج ركبهم مستترا بالظلام من مدينة الخرطوم من بعد منتصف الليل واتجه جنوبا ناحية مدينة مدني. أخبرهم دليلهم أن خط سيرهم من مدينة مدني إلى مدينة القضارف شرقي السودان ومنها إلى سواكن حيث البحر إلى الإسكندرية. دفعت أم كاثرينا كل ما ادخرته وزادت عليه قرطها الذهبي لذلك الدليل. ما أن وصل ركبهم مدينة سوبا جنوبي الخرطوم حتى خرج عليهم فصيل من الجهادية أخذوهم مكبلين بالأغلال إلى خليفة المهدي. علقت أم كاثرينا وخمسة رجال أحدهم كان أخوها بنيامين على مقصلة السوق. وذلك بعد أن حلقوا شعرها الكستنائي. نشأت كاثرينا وحيدة عند أبيها كوستا الذي عاف النساء وانكب على تجارته فجمع ثروة. شبت كاثرينا ناعمة في دلال. ورثت شعر أمها الكستنائي وعيونها الواسعة الجريئة. وضع أبوها كوستا بصمته على أنفها المنقاري الطويل فهو ما كان يلفت العيون إلى جمال شفتيها المحددتين بإتقان.

لم تستطع مريم التملص من قبضة عيون كاثرينا.

إنك تحبينه يا مريم لا تحاولي الهروب والإنكار.

توسعت ابتسامتها أكثر، صارت أشبه بابتسامة الشخص الماكر الذي كشف سرا دفينا وقالت:

أما هو فيتنفس الهواء الذي تزفرينه.

أدارت مريم وجهها المحمر وتوارت عيونها خلف الصمت. لم تترك لها كاثرينا منفذا للهرب أردفت قائلة:

أنه مسلم هل يترك دينه من أجل الارتباط بفتاه نصرانيه؟! و هل سوف تتركين دين يسوع المسيح لأجله؟.

كانت كاثرينا تقف أمام المرآة تضع مشبكا على شعرها مخافة الهروب مرة أخرى. قالت بشيء من الأسى:

لن أنسى ذلك اليوم في متجر أبي قبل ثمان سنوات وابن تاجر البهارات الشمالي المسلم أنفاسه الحارة تلهب عنقي بصم حبه هنا على خدي. لا زلت أحس القشعريرة تسري كامل جسدي كلما نظرت للمرآة.

مسحت كاثرينا موضع البصمة من على خدها و قفزت صاعدة إلى مخدعها أزاحت الكتاب عدلت مخدتها أسندت رأسها. قالت بصوت اليأس الخافت:

زوجه أبوه من ابنة أخيه وأرسلني أبي بعيدا إلى مدينة فنجاك.

صمتت قليلا ثم قالت بيأس تام:

إنني أخشى عليك يا مريم من ذات المصير.

نامت كاثرينا وتركت مريم تراقب لطخة ضوء السراج المترنح على الجدار. رقصت الظنون في رأسها مع ظلها المرتمي على ذات الجدار. لم تفارق كلمات كاثرينا اليائسة خيالها.

أنه مسلم يا مريم.

هل سوف يترك دينه للارتباط بفتاه نصرانية؟

هل سوف تتركين دين يسوع المسيح من أجله؟

فكرت أن تخط رسالة لأمها شول هناك في الخرطوم. بدأتها بالسلام والسؤال عن الأحوال. ما عرفت تجد كلمات تشرح حالها، سحبت الورقة التي سطرت عليها سلامها و مزقتها، كانت تلك ثالث ورقة تلقى ذات المصير داخل سلة المهملات.

يا إلهي ما أقرب المسافة بين حديث القلب والخرافة. أطفأت السراج، تغطت بالظلام و أسندت رأسها للكوابيس، سألت نفسها:

لم يبصم الطاهر حبه على خدي ولكنه نقش حروف اسمه على قلبي، لم تلهب أنفاسه الحارة عنقي لكنها تسربت مع الأوردة والشرايين إلى مسارب روحي!

لم يكن الطاهر ابن تاجر البهارات ولا أنا كاثرينا ابنه بائع الجبن والزيتون والمخللات؟!

لم ألتق به في مطعم بابا كوستا ولم تتبع عيونه خطواتي في إحدى ليالي النادي اليوناني الراقصة.

لم يزوجه أبوه ابنه أخيه و لم يرسلن أبي فينوس منفية الغرام إلى مدينة فنجاك!

تنهدت وقالت بصوت مسموع:

إنما أرسلني أبي إلى هنا طلبا للأمن والأمان. وأين يوجد الأمن إذا لم توفره قلوب العشاق؟! و ما أبعد الأمن و الأمان إن لم يكونا في حضن طاهر القلب؟!

٤

في الصباح لم يجد الطاهر كثير عناء في العثور على أثر خطوات النوم واضحة على جفونها حينما فر هاربا من عيونها، فأخذ الراية السهاد وظل ساهرا على خديها يمنع تسلل جيوش النوم المتربص بالمكان حتى قرعت الأجراس.

لم تبك. فقد ظلت ساهرة حتى جفت دموعها على الوسادة . تشاغلت بمداعبة عقد سن الفيل. الذي حفر عليه رمح له زوائد ووجه ثور له قرنان معقوفان.

ساءلت مريم:

ألم يأت يسوع المسيح بالمحبة والسلام؟!

كان الطاهر يرقب عقد سن الفيل ورسوماته البارزة. سألها الطاهر عن العقد. قالت وهي تضعه على يده:

هو هديه من عند أمي شول تقول أن فيه تعويذة أبوها (الكجور) الحارسة.

يا إلهي. كأنه هو. لا أنه هو.

ظل الطاهر يتمتم بتلك الكلمات بلا توقف، حسبته مسه سحر قال:

أشم رائحة أمي رضينا. رأيت صورة وجهها على حافة الرمح.

يا ليله ليلك جن معشوقك أوه وان .

لطفك يا الله. كانتا في سلسلة القيد ذاتها (شواي جين وشول).

٥

حينما تأكد الطاهر أنه ذات وشم جده (الكجور)على عقد سن الفيل الذي كان يتدلى حارسا صدر خاله كور. كانت الباخرة الرجاف تشق صدر النيل الأبيض شمالا متجهة إلى الخرطوم وعلى متنها الطاهر ومريم وقساوسة راجعين من مؤتمر كنسي أقيم في جوبا وتجار شوام وأغاريق ومجموعة من الجنود الإنجليز و بعض موظفي الحكومة وعائلاتهم ممن فضلوا قضاء عطلة رأس السنة بالخرطوم. كانت السماء صافية ورياح الشتاء التي تهب من الشمال تحضن مقدمة الباخرة تأبى عليها الرحيل. كانت مياه النيل الصافية تنحني أمام الباخرة لكي تمهد الطريق. كان بين الحين والأخر تظهر من بين الأشجار الكثيفة مجموعة من الزنوج العراة. كانوا يحدقون ببلاهة في هذه الآلة التي تجز مياه النيل أمامها وتلفها خلفها أكواما من الأمواج. فزع الزنوج لدى سماعهم صوت الباخرة العالي، توارت أجسادهم خلف الصفصاف و ظلت عيونهم معلقه بدرب الأمواج. كانت أشجار الدليب العالية تمد أعناقها و تتوارى خلف التلال. على سطح الباخرة كانت تتراقص ضحكات الرجال والنساء على إيقاع موسيقى ساكس كانت تنبعث من راديو قديم.

كان الطاهر يقف على مقدمة الباخرة وقد لفه الظلام. كان يحادث السكون و يتعجب من تصريف القدر. كان قلبه يركض داخل صدره يريد الوصول إلى قرينة أمه في القيد. كانت عيونه الجاحظة تكاد تخرج من محجريها تريد الخروج للظفر بمن أتى من بعيد لصيد البشر. يقول الألماني نيتشه ما أقرب المسافة بين القلب والرصاصة. لسان حاله كان يقول:

ما أبعد المسافة بين مدينة فنجاك والعاصمة. وما أقرب المسافة بين القيد والقلادة.

هون عليك طاهري.

قالت مريم و هي تضع يدها كضمادة على كتفه، التفت إليها، وجد ابتسامتها البيضاء تهش الظلام خلفه، خلع سترته وضعها على كتفيها شعرت بدفء أنفاسه. عاتبها قائلا:

نسمات الفجر الباردة تحوم بالمكان. هيا إلى الداخل.

٦

بعد مسيرة يوم ونصف تخللها بعض الوقفات القصيرة في مدينة ملكال حيث حملت الباخرة ببعض الأخشاب والقنا والجلود و في مدينة كوستي أواسط السودان أنزلت الباخرة بعض المعلمين و عائلاتهم وحملت عبوات في صفائح معدنية من الجبن الأبيض والأسماك المجففة و أخيرا وصلت الباخرة (الرجاف) إلى اسكلا الخرطوم. تلك المدينة الساحرة معشوقة النهرين. تغيرت الخرطوم كثيرا منذ آخر عهدها. يقول الأهالي إنها تشبه خرطوم الفيل عند التقاء النهرين. يقول الرحالة البريطاني جيمس جرانت أنها كانت تزرع في أراضيها الخصبة زهرة القرطم وتصدر لمصر لاستخراج زيت الإنارة. سكنها النوبة منذ أربعمائة عام ق.م. لكنها عرفت حياة المدنية حينما أصبحت عاصمة الترك بدلا عن مدينة مدني في عهد حكمدار السودان عثمان جركس باشا البرنجي. تغيرت كثيرا خرطوم الإنجليز عن خرطوم الترك. بعد أن دكتها خيول جنود المهدي نفضت غبارها و حاولت النهوض مرة أخرى. استجلب الإنجليز للمدينة الجديدة أكفأ الإداريين وأمهر العمال. توسعت الشوارع وامتدت الطرقات المعبدة. تبدلت الكثير من المعالم، ارتفعت المباني لأعلى من الطوب الأحمر اللبن. تزاحم على أبوابها شتى صنوف البشر من بقاع الدنيا ومن أطراف سودان الإنجليز. استغنى الإنجليز عن الخيول المصرية وأصبحت تجر عربتهم ماكينة إنجليزية محملة بالحضارة الغربية.

سارت بهم العربة من أسكلا البواخر على النيل في طريق واسع يسابق النيل الأزرق في جريانه من الشرق إلى الغرب حيث كانت تصطف على جانبيه أشجار (اللبخ والمهوقني) وقد خضبت سيقانها باللون الأبيض. وكانت تقف على بساط نجيلي مخضر مطرز بزهور الفل والورد الإنجليزي التي كانت تعطر الهواء بعد اغتساله في النيل. كانت تتناثر على طول امتداده شرقا وغربا مقاعد إسمنتية تلقي طعمها لأسماك النيل وتنتظر العشاق. كانت ترتفع على جانبي الشارع البنايات الحكومية من طابقين بلونها الأبيض وحدائقها الغناء ومنازل كبار موظفي الدولة. قرأ الطاهر في طريقه لافته بخط إنجليزي واضح تحته خط عربي شارع كتشنر وسهمين. شرقا وغربا. وضعت اللافتة حديثا. طلب تأكيدا وجده عند سائق العربة.

كان السائق في نهاية عقده الرابع على خديه خاتم نوبي، ثلاث فصدات من كل جانب. كان يتحدث العربية بلكنة نوبية محببة وكأنه وجد ضالته للثرثرة كعادة سائقي مركبات الأجرة.

ساق السائق الكلام وقال:

نعم إنه شارع اللورد كتشنر حتى أنهم وضعوا له تمثالا برونزي وهو على صهوة فرسه أمام قصر الحاكم العام. وهاهم يطلقون أسماء لوردات الحرب على الشوارع التي مشى عليها شهداؤنا.

قال جملته الأخيرة بحسرة لا تخطئها الأذن. أكمل حديثه كمن يخاف إضاعة الطريق:

من الناحية الجنوبية وموازي لهذا الشارع يوجد شارع غوردون باشا وعليه تمثاله البرونزي وهو يمتطي جمله جنوبا من سرايا الحاكم العام . يجيء بعده وعلى نفس الخط الموازي شارع الملكة فيكتوريا وليس لها تمثال يحرس الشارع. يمتد شارع الملكة فكتوريا غربا حتى السوق الإفرنجي والمسجد الكبير.

كان السائق يصف المدينة كأنه حضر تخطيطها، ألقى التحية على بعض معارفه من العابرين بسياراتهم في الاتجاه المعاكس دون أن يلتفت فقد عرفهم بألوان سياراتهم الفورد التي أدخلها الإنجليز لبناء الحضارة الجديدة محل الحضارة القديمة. أسس الإنجليز العاصمة الخرطوم لتكون بمثابة لندن إفريقيا. جلبوا لها الكباري الحديدية المعلقة على النيل والتي تعبر من فوقها خطوط السكة حديد. أسسوا دورا للسينما والنوادي الترفيهية والأسواق الحديثة التي كانت تصطاد الماركات العالمية من الاسموكينج وما تصنعه مصانع لانكشير من الأقمشة القطنية الراقية حتى أن أنديتها الليلية تأتيها الخمر والنبيذ الاسكتلندي المعتق قبل نزوله إلى جادة الشانزلزيه بفرنسا. استورد الإنجليز كل الحضارة الغربية على ظهور أحفاد من أخذوهم من قبل كقطعان خراف سوداء ترعى حصاد حقول قطنهم الأبيض.

كان آخر شعاع للشمس يجرجر رجليه متعبا ناحية الغروب حينما بدأت تضاء شوارع المدينة بواسطة مصابيح صفراء تتدلى من أعمده عالية. كانت المصابيح المعلقة تغسل بنورها هامات الأشجار فيسيل ظلها على أرضية الطريق المسفلت. قال السائق بتسليم تام وصوت واهن، كمن وجد العذر للإنجليز لكي يقوموا بتسمية طرقات المدينة بعظمائهم:

ليسوا مثلنا هم منضبطين ومنظمين حتى أنهم يجعلوننا نغسل شوارع المدينة ليلا لكي نمشى عليها نهارا ومنعوا مرور الحمير والخيول والهوام من أمام دواوين الحكومة وخصصوا لها طرقات وساعات محدده.

دلف السائق باتجاه اليمين و سار قليلا على طريق واسع يتجه جنوبا لمحطة السكة حديد. كان السائق ما يزال يثرثر بشتى المواضيع بدون توقف. كان غالبية حديثه معلوم لدى الطاهر لذا لم يكن مهتما قال:

هذا الشارع يفصل بين حيين من أرقى أحياء المدينة، حي السوق والحي الإفرنجي حيث الحياة الصافية الناعمة. ضحك وقال:

الحياة هنا لا تختلف عن حياة اللوردات في شوارع لندن. هناك في قاع المدينة في حي (هبوب ضارباني) الحياة الحقيقية.

غمز للطاهر بعينه كمحتال ماكر يدعوه لشيء ما يخص الرجال. لم يعره الطاهر أدنى اهتمام. كان الطاهر شارد الذهن، يفكر في تصاريف القدر، تعبث برأسه مجموعة من الأفكار الشريرة. فكر أن يقتل فيونس ويغسل بدمه قيد المكية. وجدها فكرة مجنونة، كيف يقتل الرجل الذي سوف يتزوج بنته؟

لابد من ثمن يدفعه هذا الخواجة لكن كيف؟

قال في نفسه:

لطفك بعبدك الطاهر يا الله. يكاد رأسي ينفجر.

تمنى لو لم يلتق بمريم قط، تمنى أن يجده ميتا. تمنى لو لم يعش إلى هذا الوقت. تذكر وصية أبيه الشيخ (من فش غبينتو خربت مدينتو).

قال في نفسه:

ولكن أين أبوي الشيخ ؟ منذ رحيله عن الدنيا وأنا أقف في مكاني (كالهمبول. كخيال المأتة) لا أبذر البذور ولا أهش الطيور.

قرر الطاهر أن يترك القدر يسير الأمور، فهو منذ وعي على هذه الدنيا يسير على خطى القدر كالذي يسير على حد السيف قال:

ما قد يقرره القدر هو الحكم الفيصل.

عرفت مريم المكان أنه الشارع الفاصل بين الحي الإنجليزي شرقا والحي اليوناني غربا. كاد أن يخفي عليها فقد لمسته يد الحسن، هاهو يبدو واسعا مرصوفا تتخلله أشجار اللبخ التي زرعت حديثا. الحي اليوناني ذات نفسه بات أكبر تمدد شرقا حتى حي الترس وغربا إلى طرف السوق و شمالا منعه النيل من العبور إلى جزيرة توتي وجنوبا وصل إلى قريب من محطة القطارات وسكنه كثير من الشوام و الأغاريق و اليهود والأقباط. أشارت للسائق للتوقف عند ذاك المنزل الذي يطل على ناصية الشارع الشمالية. بدأ السائق غير راض بسبب انقطاع قصصه التي لم تكتمل.

قال وهو منهمك في إنزال الحقائب من السيارة:

حمدا لله علي سلامة الوصول، أتمنى لكم أقامة طيبة، لو احتجتم خدماتي فأنا بخدمتكم، اسألوا عني فأني متواجد يوميا بالمحطة الوسطى بالقرب من المسجد الكبير.

٧

كان ليل الشتاء في خرطوم الإنجليز نهاية العشرينيات يلفه الهدوء إلا من أنفاس العشاق وضحكاتهم في طريق ذهابهم وعودتهم من عرض سينما كولوزيوم أو حضور حفل راقص في النادي اليوناني. ليل الخرطوم عادة يتسم بالهدوء والفرح إلا من أنين السواقي قبالة جزيرة توتي تشكو للنيل دخان طلمبات سحب المياه. الطاهر وحده، كان ليله حالك السواد، يغلي صدره كمرجل، تزداد ضربات النوبا وسرعة إيقاعها في قلبه. كان رأسه يدور كالدرويش في حلقة الذكر. يأتيه هاتف. كان ذلك الهاتف صوت أبيه الشيخ.

(يا المبروك من فش غبينتو خربت مدينتو).

أبوي الشيخ. صدري يغلي.

يا المبروك. الحليب المنسي في قدر تحته نار، يفور و يطمح فيطفئ النار فيتعشى مردة الجن الفجار.

يبرد غليان صدر الطاهر وتسكت ضربات النوبا في قلبه، يردد مع صوت الذكر من مسجد الشيخ أرباب العقائد القريب للمكان.

يا إلهي أجب دعائي.

وزدني في الهناء و الرضاء.

إلهي قد أتيتك بانكسار

وما لي حيلة إلا رجائي.

هدأت أنفاس الطاهر قليلا، استجمع كل حلم الأرض في صدره ودخل الغرفة. وجد العجوز فينوس مكوم على طرف السرير عيونه كطفل بلل الفراش. كانت أنفاس الخواجة العجوز تتصاعد كالهر وسط كلاب ضالة. كان يشتم أنفاس صيده اللاهثة لكنه لا يسمع اصطكاك السلاسل الحديدية والقيد على الأرجل ولا أنات النفوس المنكسرة تحت سياط العنج تحثها على السير ولا يرى وجلات العيون الذائقة حينما تتفطر نظراتها لتحرق مجاري الدمع فتنكس الرؤوس.

رفع العجوز فينوس يده أعلى جبهته يتقي ضوء الشمس الأسود المسلط من عيني الطاهر.

تساءل الخواجة، خرج صوته مكتوما واهنا كفحيح:

من أنت؟

اصطكت الكلمات بين أسنان الطاهر، فخرجت حادة محززة. كان صوته خشن كمن يمسك منجل يجز به عشب جاف قال:

أنا (تيوك) بقر مرجوع بلغة أهلي النوير. أنا راجع بضاعتك السوداء البائرة.

فرو صيدكم الذي صبغته و دمغته لتغطي حسناوات أوربا صدورهن العارية وهن يتسكعن في ساحة الطرف الأغر.

أنا رأس صيدكم المفصول عن جسده في فاصل منازلة مع وحوشكم على خشبة مسرح بياتسا دل كولوسيو.

أنا ذلك الرأس المعلق على جدار متحف اللوفر، يغازل بنظراته الموناليزا فتبادله بدورها الابتسام.

أنا وأسلافي كنا كومبارس في مسرحية هزلية على مسرح امبرا جوفينلي.

أنا ما تبقي حيا من طرائد كلاب قصر فرساي .

أنا الطاهر (جنوكورو).

٨

فينوس كوستا بنيامين. نزحت عائلته من اليونان إلى الجليل عقب إعدام الأتراك للبطريرك جريجوريوس وإخماد ثورته عام ١٨٢١م. ركب البحر من سهت عنه سيوف العثمانيين و بقى حيا. أخذتهم رياح الجوع والخوف ذات الأشرعة السوداء إلى كل المرافئ. بعد أن عاهدوا البطريرك الجديد على العودة إلى أرض هيلاس. تقول النبوءة القديمة (يومها سيفتح الباب الذي أعدم عنده البطريرك ويعلق مكانه رئيس تركي رأسه يتدلى). هذا كان قسمهم عندما تشابكت عيونهم قبل أياديهم. طوى الأب كوستا أحزانه مع أشرعة السفينة السوداء بالمدينة المقدسة حيث سكن هو وعائلته المكونة من زوجته ليليانا وثلاث بنات مدينة الجليل. غاص في دهاليز المدينة وأزقتها يبيع منسوجاته القطنية فأصاب ثروة. أغلى ما وهبته آلهة المدينة المقدسة عام ١٨٤٨م ابنه فينوس تعلم الصبي فينوس صنعة أبيه وأضاف عليها الأصباغ والتطريز والألوان. حينما امتلأت بطن المدينة باليهود لفظته هو وعائلته إلى الإسكندرية، فيها تعلم الفتى فينوس أصول التجارة وأجاد الصنعة و انفصل عن والده. حينها كانت تأتي سفن البحر محملة بأخبار أقاربه من أرض الذهب والرجال. لمع بريق الذهب في عيني الفتى، تبع بريق الذهب إلى سواكن وجد الرجال السود و لم يجد الذهب.

سمع فينوس رنين الذهب يلمع في أذنيه ناحية خرطوم الترك وصلها بمساعدة الضابط المصري زوج أخته روزالينا. وظفه زوج أخته في ديوان جمع الضرائب وبكثير من الحيلة وقليل من الرشى شارك فينوس صديق والده العجوز بولس في تجارته الظاهرية البيضاء(الخردوات والميني فاتورة) والباطنية السوداء (تجارة الرقيق). تهللت الدنيا وما بخلت عليه أرض السود، فحولت دنياه إلى نعيم أبيض انغمس في عسله حينما زوجه العجوز بولس وحيدته تادرس .

ورث فينوس أموال العجوز بولس البيضاء والسوداء و ملاكه الحارس تادرس فحلق به الحظ بجناحيه. إلا أن هبطت جحافل جيوش المهدي كالصاعقة على مدينة الخرطوم فأحالت جنته إلى يباب وقتلت ملاكه الحارس تادرس وأخذته ضيفا ثقيلا على تعيسي الحظ بسجن الساير .

٩

اقترب الطاهر منه أكثر سمع صوت كرير صدره يكاد يمسك روحه الهاربة. طلب الخواجة العجوز جرعة ماء، أمسك بالكأس تدفق نصفه على الأرض جراء يديه المرتجفتين وسال بقيته على لحيته البيضاء، ما تبقى في الكأس لم يرو ظمأه. سأله الطاهر:

أي سفن أشرعتها سوداء ساقتها ريح هوجاء حملتكم إلى دياري؟

بحث العجوز فينوس عن إجابة بين أنفاسه المتصاعدة كقدر يغلي وعيونه الغائرة. هتف دون أن يجري وهو عاريا و يقول وجدتها...وجدتها. لمع ما وجده في عيونه كلاما، وبدأ يحكي:

كنا يا ولدي عبارة عن مجموعة من المشردين الخائفين الجائعين. يسوع الرب طرد أسلافنا وأزال تمثال زيوس من الهيكل وقال (بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص). سمعنا عن بلاد بعيدة شمسها حارقة و مياهها وافرة. بلاد النيل و الذهب والرجال.

لمع بريق الذهب في عينيه مرة أخرى ابتسم بخبث منعته الكحة من الضحك وقال:

ومن ذا الذي لا يعشي بصره بريق الذهب؟ كانت أوربا في ذلك الوقت متعطشة للذهب وسواعد عمال كالبغال. وقد قال حكيمنا هرقليطس يوما (الحمير يفضلون سقط المتاع على الذهب).

ضحك باستهزاء وقال:

بالطبع لم أكن أنا الحمار.

خالجه الندم فتأسى و أضاف قائلا:

نحن يا ولدي مجرد كلاب للصيد استخدمتنا أوربا وإمبراطوريتها التي لم تغب عنها الشمس يوما. ولا فرق عندنا إن أطعمنا أسيادنا من لحوم صيدنا أو عظامها.

هدأت أنفاسه قليلا قال بحسرة وندم ظاهرين:

إنه مال ظلم يا ولدي ولن يصنع أصدقاء يقول فيه يسوع المسيح (أصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظل الأبدية. فإن لم تكونوا أمناء في مال الظلم فمن يأتمنكم على الحق).

إنجيل لوقا ١٦:٨ .. ٩:١١

بكى فينوس كطفل على صدر الطاهر، انتفض فجأة و صرخ وتكور في زاوية السرير صار يهذي:

الرحمة يا خليفة مهدي الله. فينوس صار مسلما، فينوس عبد فقير يخاف من الموت.

بلل فينوس ريقه بالماء، مسح وجهه بدموعه وما سال على لحيته لم تنطفئ ناره، سكنت أنفاسه وقال:

الرحمة يا ولدي بحق يسوع المسيح.

تغطـي بندمـه، انكشـف ضـعفه وخوفـه فـأغمى عليـه. مسـك الطاهر بتلابيب العجوز فينوس هزه بقوة ككيس طحين فارغ، عـج المكـان بغبـار الخطايـا و رائحـة الـذنوب. صـرخ الطـاهر بوجهه:

وهل كانت سلاسل قيدك رحيمة بخرافك السوداء ؟

ألم تخبركم أشعار هوميروس وملحمة الاليـاذة والاوديسـا عن الملكتين الكنداكة وأماني تيري؟!

ألـم يسـطر حكمـاؤكم السـبعة عـن أمجـاد الملـك بعـانقي وولـده تـهراقا؟

ألـم يخبـركم التـاريخ عـن حضـارة مملكـة مـروي و نبتـة و كوش.؟!

هل سأل هيرودوت النيل يوما. من أي الأراضـي نبع وكم مـن الأودية قطع ليهب مصر للفراعنة؟.

شهق العجوز فينوس. زفر الطاهر في وجهه:

نبع النيل متفجرا من تشقق الأرض حينما دبت فيها أقدامنا و جرى بالماء الزلال حينما عصرت أيادينا السحب وانغرست في الثريا هاماتنا.

رمى به على السرير كخرقة بالية وقال:

تبا لكم و لحضاراتكم التي مـا رأت بـلادي غيـر أرض للـذهب ومزرعة كبيرة تنبت خراف الرب السوداء.

ضحك العجوز فينوس باستهزاء وقال:

حتى أجدادكم العرب المسلمون حينما زحفوا جنوبا من مصر قنعوا من بلادكم بثلاثمائة وستون عبدا سنويا وزهدوا في ضـمها لأرض الإسلام.!

أرخى الطاهر قبضته حينها تنفس العجوز الصعداء وعبق صوت الذكر من عيني الطاهر و قال:

بئس المدينة مدينتكم الفاضلة حينما تكلم عنها زرادشت وقال (أستحلفك بكل ما أوتيت من قوة ونور وصلاح أن تبصق على هذه المدينة .مدينة بائعي السلع ثم تكر راجعا إلى الوراء .إن الذي يجري في عروق هذه المدينة إنما هو دم فاسد. فأبصق عليها لأنها مزبلة تتراكم فيها القاذورات. أبصق على مدينة النفوس الضعيفة والصدور الضيقة. مدينة العيون الحاسدة والأنامل اللزجة مدينة الوقحين والفجار المعربدين و الطامعين اليائسين. المدينة التي يتكدس فيها من يأكلهم سوس الفساد من أهل الشهوات المتآمرين. أبصق على هذه المدينة وعد أدراجك).

بصق الطاهر تلك الكلمات على وجه العجوز كمن يلفظ نوى التمر.

دمعت عينا العجوز بياض، سمع الطاهر هاتف من أبيه الشيخ مرة أخرى كان الصوت هذه المرة أقوى. يتلو والكاظمين الغيظ. كظم الطاهر غيظه وأرخى قبضته. تفتحت أسارير العجوز فينوس.

رتل الصوت. والعافين عن الناس. سالت دموع الطاهر، قطرت على الأرض رسمت العفو.

خشع الصوت مرتلا والله يحب المحسنين.

هدأت أنفاس الطاهر و بردت روحه ولكن لم تبر جروحه.

خاطب الطاهر روح العجوز فينوس المتعجلة للحاق ببقية الأرواح قائلا:

فلتمت بعاركم الذي لن تطهره مياه الأراضي والسموات السبع.

وأضاف مذكرا إياه بقول نيتشه (إن ما يحتقره المجاهدون والظافرون على السواء إنما هو ميتتكم الشوهاء التي تزحف لصا وتتقدم آمرا مطاعا).

تعلقت عيني العجوز فينوس بالسقف تراقب خطى روحه الصاعدة للسماء.

١٠

كانت شول منهمكة في تزيين مخبوزاتها قبل إدخالها إلى الفرن الطيني فهي ليلة عيد. حينما دخلت مريم يتبع خطواتها الطاهر، شهقت روحها فرحا، حضنت دموعها وحيدتها مريم، لطخت عجين يدها على فستانها الأسود فرسمت صورة كفها على كتفها. وقعت دموعها على من كان يقف خلف مريم. قالت مريم:

أسمحي لي يا أمي نسيت أن أعرفك بالطاهر.

تقدم الطاهر نحوها. كانت شول أشبه بأمه رضينا غير أن وجهها تغطيه رقة نعومة العيش ولم تخطط جبهتها خطوط الوشم. تساءلت عيون شول وهي تشاهده لأول مرة واقفا كالألف؟. كأنها أمام عيون أختها شواي جين و قامة أبيها ميانج و جبهة أخيها كور غير أن أنفه كان دقيقا وشفاهه كانت رقيقة.

أخرج الطاهر العقدين ناولهم شول تفحصتهم جيدا. أحدهما عرفته عليه خيط حريري أحمر ملاكها الحارس الذي أودعته عند بنتها مريم. أما العقد الآخر كان عليه خيط جلدي قديم لونه بني لكنه صار أسود مع مرور الوقت. اشتمت رائحته و تفحصت وشمه انه صنع أبوها ميانج قلده لبناته، شول، شواي وولده كور.

سقطت دموعها على خرزة سن الفيل قربته لأنفها و أغمضت عيونها كمن يستدعي رائحة الزمن القديم تذكرت تلك الطفلة التي كانت تقف نصف عارية عليها أساور من الحديد. تذكرت أختها شواي ونظراتها البعيدة الفزعة من بين أرجل جمل العصارة. دموعها الحارة التي سالت واختلطت بسوائل أنفها، طعمها كان مر ومالح أيضا تذكرتها.

قالت مريم:

نعم يا أمي إنه الطاهر ابن أختك شواي أبوه الخزين من الشمال.

تلاقت دموع الفراق وأنفاس الحرية فذابت أحزان الزمن وانكسر القيد.

١١

حينما قال الطاهر لخاله كور أريد الزواج بمريم ولكني أخاف رفضي من قبل أبيها والكنيسة.

ابتسم كور بخبث وأخرج الغليون من فمه لكي تخرج كلماته واضحة وقال:

ولماذا تطلبها من أبيها والكنيسة؟!

قبل أن يرتخي حاجبا الطاهر المشدودان دهشة. أضاف كور وهو يشفط الهواء من الغليون لإشعاله وكانت قد توسعت ابتسامته وقال:

في الماضي ربطتني علاقة عاطفية بإحدى بنات القرى المجاورة ولأني كنت أخاف رفضي من قبل أهلها، تسللت ليلا إلى بيتها. أخذتها وصعدنا إلى الجبل. مكثنا في الكهف لثلاث أسابيع. طعامنا كان عسل النحل وشهد الحب.

لمعت عيونه كمن وجد كنزا قديما مدفونا في جوفه. أخرج ضحكته المنتصرة عاليا تصاعد صداها مع دخان الغليون بالمكان وقال:

نزلنا من الجبل وكانت حبلي بابني البكر، حكم علي الكجور بدفع أربعين بقرة لأهلها.

تفل مرارة الدخان وقال بأسى.

لكنك يا الطاهر (مندوكورو)، لا تتحدث لغتنا ولا يخطط جبهتك وشمنا ورباعيتك كاملة لا تنقص منها سنا.

فهم الطاهر ما قصده خاله كور. فكر الطاهر أن يتعلم لغتهم ويخطط جبهته ويكسر رباعيته مهرا للارتباط بمريم.

ضحكت مريم حينما أخبرها الطاهر تلك القصة، غازلت الفكرة خيالها قالت:

ولم لا؟. أريد أن أهرب معك إلى جزيرة بعيدة لا تصلها سفن الصيادين ولا أشرعة العابرين نجعلها جنتنا الخالدة تكون فيها آدمي وأنا حواؤك، نغرس فيها راية العشق للعاشقين، نزرعها حب ونحصدها حنين و تكون محصنة من شياطين الانس والجن بيسوع المسيح ويسن.

١٢

مضت عشرة شهور على رحيل روح العجوز فينوس إلى عالم الأرواح. كان التاجر السوري أبو نزار في مسجد أرباب العقائد وكيلاً عن مريم يضع يده اليمنى على اليد اليمنى للخير ابن عم الطاهر بعد صلاة الجمعة وهو يردد من وراء خليفة الشيخ الإدريسي:

قد قبلت تزويجك موكلتي على سنة الله ورسوله ومذهب الإمام مالك وعلى الصداق الذي هو بيننا والله خير الشاهدين.

دفع الطاهر أربعين بقرة مهرا للعروس. تهللت مساجد الخرطوم، نثر الصبية التمر والفول السوداني على المصلين. أضيئت الكنائس بالشموع وقرعت الأجراس، نثر ماء الورد والحلوى والأرز وأقيمت القداس.

حلقت فوق رأسه روح أبيه الشيخ فرحه:

يا المبروك أمسك طريق القوم تلقى الهناء بالكوم.

كاد الطاهر أن يبسط جلبابه بالوصيد ليجمع الهناء المكوم. حينما كان طفلا بالمسيد كان يرخي طرف جلبابه القصير لكي يجمع بشرى الهناء من الشيخ. كان الشيخ يضحك ويضربه على رأسه الأقرع بالمسبحة تحسس رأسه وجد عليه خليط دهن العود والصندل ومسحوق المحلب.

في المساء كانت مريم في فستانها الأبيض أشبه بملاك يحلق الفرح من عينيها بجناحيه. كانت تنشر النور في المكان، كانت تحرسها روح العذراء مريم المعلقة على جدار الكنيسة. وقفت مريم على الممشى المقدس لتأخذ بركات الحبر الأعظم ردا على مخاوف الأب يوليوس.

أبرقت صديقتها كاثرينا قالت:

أنها تأسف للغياب لكنها ترسل التبريكات وتهنئ انتصار الغرام.

صديقاتها كن يمسكن الشموع و ينثرن الزهور وماء الورد على رؤوس الحضور. حنا ابن عمتها روزالينا وقف يوقد الشموع وقد اندلقت روحه وسالت على قلبه المكسور وما أطفأت الشموع.

وقفت مريم أمام الحبر الأعظم تتلقى تبريكاته وهو ينثر ماء الحياة على وجهها الملائكي ويقول:

(باسم الكنيسة المقدسة أسلمك زوجا للطاهر فالتحلل عليكما بركة يسوع المسيح وصلوات مريم العذراء القديسة).

آمين.

الله الذي كلل السماء بالنجوم والأرض بالأزهار يكللكم بالأكاليل الزمنية ويؤهلكما للأكاليل الأبدية ويحفظ حياتكما ويملاها خيرا ويجعل أمنه وسلامه بينكما ويغنيكما بفيض نعمته ويملأ قلبيكما فرحا وشفاهكما حمدا فتؤديان المجد لله إلي الأبد)

آمين

ضج القداس بالزغاريد والبخور والحلوى والشموع مهرجان الفرح القادم من بعيد.

١٣

اللیل لیل العدیل والزین

اللیلة العدیلة ویا عدیلة الله

بسم الله ابتدیت قولي السمح والزین

والقول ما بدور البکتبو ویقرأ

بهذه الأهزوجة الشعبية زفت قرية الفكي حسين الطاهر ومريم عروسين للنيل. دقوا النحاس والطبول. تجمعت كل القرى في قرية الفكي حسين. نحروا الذبائح، امتلأت البطون لحم وثريد وشراب بعضه حلو وآخر مسكر حامض ومر. في ذلك اليوم نقلت مركب خير السيد البشر والدواب من الضفة الشرقية للنيل مهنئين حتى غروب الشمس وما قل عدد القادمين من البر الشرقي.

حينما سمع خير السيد صوت الدلوكة يشق الظلام، صرخ بأعلى صوته مخاطبا من ظنهم بالبر الشرقي يريدون العبور:

عليكم ركوب الموج، لن أمكث في النيل النهار والليل بطولهما وغيري يأكل ويستمتع بالحفل والرقص والغناء.

قال بسخط:

هذه مهنة تقصر العمر.

ثم أحكم قيد مركبه الصغير على شجرة (الطرفا) بعد أن ملأ بطنها بالماء خوفا من السكارى المتسللون ليلا. هرول وهو يصعد الجرف و يكمل في ارتداء جلبابه. كان يقفز لأعلى كلما تخيلت أذنه سماع إيقاع الشتم يخالف صوت الجلد الرهيف.

فرحت القبة و ضج المسيد بالذكر والمديح. فرح النيل والنخيل والشجر حتى الحجر كنت ترى فرحته و الطيور تحط عليه من كل الجزر تصفق بأجنحتها و تشدو بأصواتها أعذب الألحان.

إلا العازة ابنه أحمد ود الخبير. كانت تعصر ألمها في قلبها بحبات قرض تضعها بين ضرسها و شفتيها، لطالما مضغت مر الحب وتجرعت حنظل الغرام وهي ترى الطاهر عشقها يزف عريسا إلى جنة مأواه.

أمها الرضية جارية حسناء، كانت تقوم بصناعة الخمور البلدية من البلح وتقوم ببيعها إلى المزارعين أصحاب المزاج. حبلت بها أمها يوم زارها أحمد ود الخبير ذات ليلة شتوية. كان أحمد ساهرا يسقي أرضه التي زرعها بالفول المصري. كانت عشة الرضية بالقرب من أرضه طرف القرية، تلك الليلة الباردة راودته نفسه على كأس عرق ولحم مشوي، حدث نفسه:

هذا البرد يلزمه كأس عرق بكري ولحم تيس مشوي.

دخلت نفسه في تيس صغير مربوط طرف الجدول قال:

لا يهم من صاحبه، الكأس واللحم أهم، ثم أنه تيس صغير لم يكمل الشهرين ولا يزن حتى وقتين لحم.

مسح على شاربه وقال:

على أي حال حينما يظهر صاحبه سوف أدفع له ثمن التيس.

كانت هذه كلماته وهو يقطع في لحم التيس وبجواره جلست الرضية كانت منهمكة في إشعال النار. في تلك الليلة أطفأ أحمد ود الخبير جوع بطنه من لحم التيس المشوي ونار شوقه من جسد الرضية المدخن. وعت العازة على رائحة العرق و (المريسة) والعسلية. كانت عيونها شهية كالشهد، ترسل سهامها فتغوص في أكباد الرجال، يظهر جسدها المتنمر محززا كجندول الذرة الشامي التصق عليه غشاء حريري شفاف مخضر أو مصفر. كانت العازة ترى في الطاهر مفتاح خلاصها وطوق نجاتها. كان الطاهر يرى خلاصه من القيد في مكان بعيد. لم يحدثه قلبه عنها يوما، أما هي فقد حدثتها عيونها طوال سنين وهي ترقب طريقه واردا النيل أو سادرا من البندر في إجازاته القليلة التي كان يحضر فيها للقرية. غافلت قلبها يوما وألقت عليه السلام. سمعت عيونه تضاحك ابنه عمه نعمة. رجعت نظراتها الممدودة بالسلام منكسرة حيث غاصت في دموعها وضاع منها الكلام.

حينما أخبر الطاهر ابن عمه وتوأم روحه عبد الله بسره الكبير، كانا يجلسان تحت شجرة النيم أمام صالون الرجال، تحسبن عبد الله وتحوقل، ألقى بالحبل الذي كان يشبكه لكي يصرم به رأس العجل. نفض عبد الله يديه كمن يطرد غبار ما سمعه من كلام و قال:

تتزوج بنصرانية غلفا، أبوها خواجة وأمها ......!!

صمت عبد الله فجأة. فقد تذكر من تكون رضينا أم الطاهر. استطرد قائلا:

سوف تردك عن دينك وتبعدك من طريق القوم ولن تدخل لا هي ولا أهلها في دينك أفواجا.

شعر عبد الله بالحرج حاول إصلاح ما أفسده منذ قليل بحديثه عن أم مريم.

لم يشأ الطاهر أن يذكره بنعمة ابنه عمه، حب الطفولة حينما كان القلب أخضر وكيف أن عمه الدخري فضّل عليه ابن خالها برغم أحقيته حسب العرف والعادات والتقاليد، خصوصا وأنه سلك طريق القوم وعثر علي هنأه المكوم هناك حسب وصية جده الفكي حسين قال:

لا عليك يا عبد الله فإذا كان خالي كور يرفض الاعتراف بهويتي ويقول عني (مندوكورو).

علي أي حال أنا اخترت حياتي ومن تتحدث عنها هي إبنة خالتي وسوف تصبح زوجتي وأم أولادي في يوم من الأيام ونحن سلكنا طريقنا ولن نلتفت للوراء، لا داعي لكي تبدل هي دينها كما لم يتطلب الأمر مني ترك طريق القوم.

١٤

عندما زف الطاهر مريم إلى القرية عروسا، تشهد عبد الله وصلى على النبي محمد و تساءل:

من أي الجنان ظفرت بهذا الملاك؟ وأي البحار ألقت عليك حورها؟

ضربه على كتفه وقال:

يا لك من محظوظ، سمى أبوي الشيخ المبروك. وأنت فعلا شيخ مبروك.

صديقه مرسال أغمض عينيه كمن حدق مليا في قرص الشمس، دمعت عيونه مسحها بطرف كمه المتسخ بالزيت والفحم، سأل حسان الذي كان يقف بجواره:

أهي فعلا خواجية؟ إنسية أم جنية؟

ضاع الكلام بين عيني حسان الجاحظتين وفكه المتدلي لأسفل، كادت شفتاه أن تلامس صدره المبلول بلعابه الذي سال.

داخل الدار تحلقن البنات حول مريم. هذه تشتم شعرها، أخرى تمرر يدها على جلدها الناعم وتمسحها على جسمها. كانت مريم وسطهن أشبه بلؤلؤة بين يدي التجار.

في الغرفة الأخرى تهامست أصوات نسوه بعضهن متزوجات و بعضهن كن عزبات. قالت إحداهن:

يا بت هي أصلا أمها أخت رضينا لكن أبوها خواجة عيونه خضر.

جاء صوت من بعيد أكثر همسا من الصوت الأول:

لا يغركن اللون الأبيض. رائحتها كريهة مثل رائحة النحاس.

ضحكت وقالت:

اسألوني أنا عندما ذهبت إلى المستشفى في البندر(أم درمان) فحصتني حكيمة حلبية. والله كانت رائحتها عفنة كرائحة النحاس المبلول.

تمايلن من الضحك كانت كل واحدة منهن تضرب على كف الأخرى فشكت الأسرة والمقاعد الخشبية من الوزن وضج المكان بالضحك.

يا نسوان تأدبن قليلا، المفروض تخافن على أزواجكن من السفر جنوبا. عروس الطاهر ملاك طائر وقمر في السماء ظاهر.

كان ذلك صوت سعاد أخت الطاهر من زوجة أبيه المصرية.

قالت إحداهن بخبث:

علينا أن نخبر الداية، دار السرور لكي تقوم بعملية ختان الخواجية وإدخالها في الإسلام.

ضحكت جميع الأصوات بهستريا.

ردت عليهن سعاد بكلمات الأهزوجة الشعبية.

يا سلام منو. الديسو بارعنو

أماتو ما أدنو والعاشقين جنو

انطلقت الزغاريد، لكي تنهي الجدال.

نقشن الحنا على أيدي وأقدام العروس، وضعن بخور العود و الطلح وزفت مريم إلى الطاهر كذهب أصفر لامع، عبء الطاهر روحه من هنأه، بشرى أبوه الشيخ .

نامت كل القرية على وسائد الطرب. نام الطاهر ومريم، تظللهما القبة ويحرسهما وجه القمر.

البركان الخامل ينشط ويثور

١

(أن أموت ليزداد حبكم للأرض من أجلي أيها الأصحاب، أريد أن أعود إلى الأرض التي خلقت منها لأجد الراحة في أحضانها).

٢

كان زواج الطاهر ومريم حديث كل القرى التي وقفت تودع النيل في رحيله شمالاً. أضحت سنة زواجهما تاريخ فاصل لما قبله وتوقيت لحياتهم بعده.

عاد أهل قرية الفكي حسين إلى حياتهم التي ما عرفوا حياة غيرها، يجتمع شملهم من طلوع الفجر على شاي الصباح، تتشابه أحداث يومهم مع حكاوي أمسهم ثم ينفض مجلسهم مع شروق الشمس كل يذهب في همه.

توسعت القرية، البيوت القديمة ولدت بيوت جديدة أصغر وأجمل، حتى كادت تصل بيوت القرية إلى غابة السلم. الجبانة بدورها تمددت حتى وصلت إلى بيوت (العنج) كأن الأرض تنبت من جوفها قبوراً. انقضى عقد من الزمان على رحيل الطاهر وهناه جنوباً. كانت أخبارهما تأتي منقوشة على أجنحة الريح. رزقا بولد أسماه الطاهر الفكي مريم كانت تلقبه (ميانج) وبنت اتفقا أن يكون أسمها رضينا.

كان قد مضي أكثر من عام على رحيل عبادي للالتحاق بالمدرسة الحربية وما هي إلا أيام قليلة ويصبح ضابطاً في قوة دفاع السودان تلك النواة التي بذرها الإنجليز لتنمو وتصبح جيشاً من أبناء السودان لحماية وطن كان على الدوام مطمعا لمن يريد سواعد الرجال وبريق الذهب والمال. حينما هم عبادي بالرحيل للالتحاق بمعسكر الجيش، تجمعت كل القرية في ديوان جده الفكي حسين. كانت كل القرية فرحه بوداعه (للطورية) وانضمامه للعسكرية. صديقه مقبول طلب منه جلبابه الأبيض غمز بعينه كمحتال ماكر

وضحك قائلا:

لن تحتاجها بعد الآن، سوف يمنحونك بدلة إفرنجية مثل عمك الطاهر.

علي ابن عمه حسان قال بلهجة حاسمة:

المنجل و(الطورية) أخذتهما لنظافة الجرف، فقد امتلأ عليق وحلفا.

أخته السارة طلبت ثوب غوردون وبراد شاي صيني. إلا أمه أمونة لم تأخذ سوى نفس عميق من رائحة عنقه وهي تضع قبلات روحها وداعا على جسده، حمّلت حقيبته بكل شيء حبه أو يمكن أن يحبه وهي توصي نفسها:

قليل من التمر لفك الريق، حلبة حب عبادي يحبها مع شاي الصباح، قارورة من السمن البلدي وعسل سدر جمعته بباقي النحل من الفجر، حمص وفول سوداني و قطعة طينية من قبة الشيخ دستها أسفل الحقيبة كانت تهمهم بأدعية جهرية وبعضها سرية. غطت الحقيبة جيدا بروحها وأحكمت قفلها بدموعها. همست في أذن عبادي:

إذا لم تعد لأجلي فعد إلي محاسن.

تطلعت في وجهه و أضافت:

فإن قلبها مسكون بالغرام.

٣

كان الطاهر قد انتقل إلي مدينة توريت بعد ترقيته إلي كبير مفتشي الزراعة بالمديرية الاستوائية، والتحقت مريم بالتدريس في المدرسة المختلطة الوسطى. كانت تعلم الأجيال الناشئة حروف الكلام.

مثلها و مدن المديرية الاستوائية، ترقد مدينة توريت على بساط من الخضرة الزرقاء تلف شمسها الغيوم وتغسل السحب ثوبها الأخضر وتنشره يانعا نهارا. منحها الله نسمة من هواء الفردوس فأينعت و أزهرت سهولها و وديانها بالفتنة والجمال الربانيان.

التقى الطاهر بعبادي لأول مرة بعد وصوله بفترة قصيرة إلى مدينة توريت في معسكر الجيش، عرف منه أنه أتى للمدينة في مهمة تسليم وتسلم من الكتيبة ١٠٥ قوة دفاع جنوب السودان التي سوف ترحل شمالا للمشاركة في وداع الجيش الإنجليزي إيذانا باستقلال البلاد. كان كل شيء يسير بانتظام حسب الخطة التي وضعتها حكومة السيد إسماعيل الأزهري المنتخبة من قبل الشعب وكانت المدينة تسبح في بحيرة من الجمال الهادئ، حتى يوم١٩٥٥/٧/١. في هذا اليوم بالذات انتشرت في هواء المدينة حروف برقية كاذبة قال من نفخ الروح فيها إنها من الرئيس الأزهري موجهة إلى كل المسئولين الشماليين بالمديريات الجنوبية. كانت البرقية الكذوبة تقول:

(إلى كل رجالات إدارتي بالمديريات الجنوبية الثلاث لقد وقعت اليوم على وثيقة لتقرير المصير .لا تسمعوا لشكاوي الجنوبيين الصبيانية وضايقوهم وعاملوهم معاملة سيئة بناء على تعليماتي وكل إداري يفشل في تنفيذ أوامري سيكون عرضة للمحاكمة وبعد ثلاثة أشهر ستأتون وتجنون ثمار ما قمت به من أعمال).

انتشر خبر البرقية الكاذبة داخل النفوس التي كانت أصلا تغلي بنار الريبة والشك تلهبها كل رياح آتية من الشمال.

حكى الطاهر بعد تلك الأحداث التي وقعت في ذلك اليوم ومجاري الدمع تنحت خديه بلا توقف:

كان يوما عاديا مثله وبقية الأيام، خرجت من البيت لتمارين الرياضة الصباحية بعد صلاة الفجر. كانت نقاط الماء تتساقط من أغطية السحب المنشورة على سطح السماء، فجأة انهمر الرصاص، في البدء حسبت أنه تدريب صباحي، فقد تعودنا على هذه الأصوات و بالخصوص ونحن نجاور معسكر و قيادة قوة دفاع الجنوب.

صمت الطاهر كمن يستنشق رائحة البارود والموت الغادر لكي ينعش ذاكرته أكثر. تطلع مليا في الوجوه التي كانت تحدق فيه بفزع و ذهول كبيرين

وقال:

فجأة و كأنه انفجر البركان وقذف حممه الملتهبة في كل أرجاء المدينة. في أقل من ساعتين تحولت المدينة إلى مدخنة لمحرقة كبيرة للجثث. انتفث القدر وخرج ما كان يغلي بالصدور منذ أمد بعيد. خرج السائل الحارق وجرى سيلا في المدينة يغرق الطرقات ويسد المنافذ. كانت كتيبة عبادي التي وصلت من الشمال أول من تدرب عليه الجنود الثائرون، فأحالوا أجسادهم النائمة إلى خرق بالية طرحت على أسرتها. كانوا كالنمل الأسود الذي وجد مخزنا للسكر، نهبوا مخزن الأسلحة و قتلوا كل من بالمعسكر، الضباط والعساكر وأسرهم جميعا لقوا نفس المصير. دقت طبول الحرب إذا، كل أخذ سلاحه و لبى نداء الطبل الأجوف. انتشروا في المدينة كالجراد، رأيتهم كيف حرقوا التاجر فضل الله وأسرته داخل مخزن الذرة. ابنته الصغيرة حاولت الهرب كان (الكوكاب) أسرع إلى صدرها الصغير من الأنفاس القصيرة التي قطعتها في مضمار الحياة. كانت مريم تباشر يومها المدرسي الصباحي العادي. روى القس ديوث كيف وجدها مضرجة بدمائها وقد تكوم عليها أولادها في ساحة الطابور الصباحي مع بقية جثث المعلمين والمعلمات وفوقهم علم يرفرف أعلى السارية.

لم يستطع الطاهر إكمال بقية القصة غاص صوته داخل عبرته التي سدت أي منفذ لخروج الهواء ناهيك عن الصوت. فما عايشه يا سادتي في ذلك اليوم فوق احتمال البشر. في ذلك اليوم أطرقت الغابة و انكسرت هامة الأشجار، أغمضت الأنجم عيونها و تخضبت السماء باللون الأحمر، نعقت الضفادع ناحت بالليل المتجهم من هول الصدمة. قطع حاكم عام السودان الإنجليزي عطلته وعاد للبلاد وأبرق إلى قوة جنوب السودان قائلا:

(وصلت الخرطوم اليوم وقد صدمت صدمة شديدة بتمردكم .عندما زرت توريت في مايو ١٩٥٥ م كنت مسرورا جدا من مقدرة وروح جنود الفرقة الجنوبية وما كنت أظن بعد مضي ثلاثة أشهر تجلبون العار والفضيحة لأسم القوات الجنوبية وذلك بحنثكم للقسم الذي قطعه كل منكم بأن يخدمني بإخلاص وصدق وأن يطيع أوامر رؤسائه .إني أمركم الآن بالتسليم).

٤

حينما وصلت برقية الحاكم العام تلك. كانت الريح تنفخ في رماد الأشلاء والمآتم. فقدت النفوس عذريتها وتلطخت مياه النيل بالدماء وسالت لتروي أرضا لطالما كانت عطشى للدماء.

توريت يا وكر الدسائس والخديعة والدم

قد طال صمتك في الدجى هل آن أن تتكلمي

يا قطة أكلت بنيها وهي ظمأى للدم

من سد أبواب الجنوب بكل قفل محكم؟

من قسم السودان بين بنيه شر مقسم؟

أهم الشماليون؟ هل كانوا هناك؟

تكلمي. ردي فان العار كل العار أن تتجهمي

توريت ذاك هو العدو فهمت أم لم تفهمي

الهادي ادم.

كانت دموع الطاهر الغزيرة تصور المأساة فتبكي قرية الفكي حسين وتنعي أوجاعه. قال الطاهر مخاطبا ضريح أبيه الشيخ:

ماتت مريم وافتدت بموتها ذنوب أبيها فينوس وتجارته الخاسرة. لم تشفع لها أمها الشول ولا لغة أهلها. لم يحميها الصليب ولا تعويذة (الكجور دول ميانج).

لونها المصفر وشعرها الأسود المتمرد وضحكتها البيضاء جعلتها (مندوكورو) .لا بواكي لها كما قال الكتاب المقدس (يا بنات أورشليم لا تبكين علي بل ابكين على أنفسكن وأولادكن فإن كانوا فعلو هذا بالغصن الأخضر فماذا يجري لليابس؟).

إنجيل لوقا (٢٧/ ٢٣ _٢٨، ٣١)

صرخ الطاهر وأمسك بسور الضريح وهزه بقوة حتى كادت أن تخرج أعمدته الحديدية في يديه:

يا شيخي. أنظر ماذا فعلوا، إنهم فشوا غبنهم وخربوا مدينتهم وقتلوا مريم و نسفوا الهنا المكوم. هل هذه نهاية طريق القوم؟!

هل بقت القبة في مكانها وحلقات الذكر ما تزال تطرد شياطين الجن وتجذب دراويش الإنس؟.

إلا زال النيل يجري متدفقا من الجنوب إلى الشمال؟.

هل سدت المجاري أمامه فانفلت من مجراه هائما بالصحراء؟

هل وهل و هل .. ....؟

خارت قواه كاد أن يسقط على الأرض لو لا أن جسمه الأسفل كان مسنودا على كرسي متحرك قال بصوت اليأس و بكل لغات الأرض:

وهل أنا ما زلت حيا أم تراني ميتا وأحلامي كلها كانت سراب.؟

أتى صوت من آخر المسيد.

الطاهر استغفر ربك.

قال الطاهر بصوت واهن كانت آخر كلماتها للقس ديوث:

(يا أبت أغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون).

بكى الطاهر وهو يقول:

ليتني كنت أعرف لغتهم، قالوا لي قبل أن يفرغوا رصاصهم في جسدي (صحيح لونك أسود مثلنا لكنك لا تتحدث لغتنا ولا تحمل على جبهتك وشمنا ورباعيتك كاملة لم ينقص منها سن أنك مندوكورو أسود) تذكرت خالي كور. تركوني ملقي على الأرض تنازع روحي للخلاص. حينما وجدني جنود جيش الشمال قالوا (أتركوه يتعفن في مكانه أو تأكل جثته الكلاب إنه جنوبي. جانقي عفن). سبابتي المرفوعة للشهادة وكلمات أبوي الشيخ على لساني حي قيوم ..حي قيوم.. حي قيوم.

صرخ أحد الجنود (إنه مسلم من الشمال). أفقت بعد عدة أيام لا أذكر عددها في مستشفى الخرطوم وكان نصفي الأسفل قد بتر.

قال وهو يتطلع إلى الجزء الأسفل من جسده:

نصفي الأسفل تركته يمشي في طرقات مدينة توريت يبحث عن روح مريم و قبور أولادي.

٥

بعد مرور حوالي الشهرين من تلك الأحداث التي هزت جذع الوطن فتساقطت الجثث من الجانبين لا كالرطب الجنيا ولكنها كالنيازك والشهب تخر من السماء فتحرق الأخضر واليابس. كانت تلك الجثث التي تساقطت من الجانبين بمثابة عربون للحرية سلعته الموت المجاني. لم يعد هناك طائل من إخفاء الأمر عنها فقد تناثرت سرادق العزاء في القرية والقرى المجاورة كأنها موسم للزواج الجماعي. كان عبد الله يعلم أن الله حينما يبتلي العبد فإن ابتلائه يكون بقدر قدرة الشخص المبتلى على التحمل و لأن الله رءوف رحيم جعل السكينة تتنزل على عباده المبتلين الصالحين قال:

زوجتي أمونة صالحة أشهد بذلك أمام الله، فالشهادة لله من يوم تزوجتها لم ترفع صوتها علي ولم تذم شيئا أحضرته. هي ملاك في خلقها و خلقتها.

همهم قائلا:

على أية حال لم يعد الأمر سرا من المؤكد أن قلب الأم أخبرها بكل شيء.

أومأ برأسه لأسفل و لأعلى عدة مرات وقال:

نعم نعم. أني على يقين أنها كانت تعرف كل شيء في ذلك اليوم الذي عدت فيه من السوق و أنا أحمل أخبار تنوء بحملها الجبال. ولكنها حتما لم تشعرن بشيء حتى لا تزيد همي.

قال وهو يدلف إلى داخل الدار وبيده حقيبة من الحديد:

الآن وقد حدث الذي حدث لا ينفع الجزع لعل الله أراد بنا خيرا وبهذه البلاد أمر يعلمه هو وحده ولكن دلائله تدل على أنه أمر جلل.

رفع عيونه إلى السماء وهو يدعو الله:

لطفك بنا وبهذه البلاد يا الله.

صمت قليلا و أضاف:

ولا تحينا إلى ذلك اليوم.!

٦

جلست أمونه داخل ذات الغرفة الطينية التي شهدت ميلاد عبادي وهي تحاول تثبيت عقلها داخل رأسها بكلتا يديها. كانت روحها تتقافز أمام وجهها قبل يدها الممدودة لفتح حقيبة عبادي الحديدية الملقاة على الأرض عند جذع النخيل الذي وقف حاملاً لسقف الغرفة وحاميا له من السقوط. نظرت إلى الحقيبة لا كالتابوت الذي حمل النبي موسي إلي قصر أسيا وقد حملته أمواج النيل لا بل كان قد حمل الحقيبة إليها ناعي البوم بعد فشله في جمع أشلائه وإرسالها جثة داخل صندوق خشبي. كان فؤادها أفرغ من فؤاد أم موسي لو لا أن الله ربط على قلبها لتكون من المؤمنين. استجمعت كل سنين عمرها في قبضة يدها الراجفة. أدارت قفل الحقيبة يمين و أغمضت عيونها وغطت ذكرياتها جيدا. رفعت غطاء الحقيبة ببطء وهدوء تام. كانت تخشى فرار ذكرياتها المحبوسة هناك. قفزت روحها بكل اللهفة و شدت يدها بقوة حتى رفعت كامل الغطاء. فتحت جراح قلبها على فناء صدرها الخالي إلا من أنفاس متصاعدة في الأجواء كأنها إعصار، ألهبت رياح الفراق نار الحزن المتقدة في جوفها فتصاعد البخار. كانت رائحة عبادي تفوح من الحقيبة فيتعطر المكان بماضي الذكريات،لا توجد بالحقيبة هدايا العيد ولا وصايا القادم من بعيد.

دست يدها داخل الحقيبة تتحسس روح عبادي في المكان. عثرت يدها على قطعة جلدية مغلف ما بداخلها بإحكام. إنها آيات الله الحافظة جلبتها من أبيها الشيخ عندما أصيب عبادي بالحصبة. قبلتها تنشقت لم تجد رائحة عبادي عليها وضعتها جانبا. أدخلت يدها في الحقيبة مرة أخرى وقعت يدها على شيء أكبر هذه المرة تهللت أسارير وجهها سحبته لأعلى ساعدتها عيونها، أنها صورة عبادي وعروسته محاسن. ترقرقت دمعة متطفلة و سقطت من فورها على الصورة، قبلت جبينه و تركتها تسيل تتطفل على كامل وجهه. أغمضت عيونها لتحبس باقي الدموع المتطفلة.

شريط طويل من الذكريات مر علي خيالها. تذكرت يوم وضعته في ذات المكان بين الآلام والآمال والأوحال، خرج وهو يصرخ يلوم الداية أم الخير على تأخيره كل هذا الوقت. يوم ختانه وضعت مسحوق المحلب والصندل المخلوط بالزيت ودهن العود على شعر رأسه و عصبته بمنديل أحمر عليه هلال حاول غاضبا إزالته بيده أمسكت يده الصغيرة ربطت عليها قطعة قماش من حرير حمراء عليها خرزة خضراء. عندما طار الدم، غاصت صرخته في خضم زغاريد النساء. يوم زفافه على ابنة عمه محاسن. طار الدم أيضا من ظهور الرجال و رسم الفرح على ثياب النساء. ناحت:

لهفي عليك يا محاسن لم يدم هناك سوى ثلاثة شهور.

حمدت الله أن زرع بذرة حبه في أحشائها جنين. أفرغت محتويات الحقيبة على السرير هذا ما تبقى من عبادي نور عينيها وكأتها في شيخوختها و غطائها في ليالي الشتاء الباردة. رفعت يديها للسماء: يا إلهي خذ مني ما يرضيك ولا تغضب وألهمني الصبر الجميل.

حينما همت بإغلاق الحقيبة وقع بصرها على قطعة قماش ملفوفة بإحكام، أنها قبضة يدها من رمل ضريح أبيها الشيخ صرتها لكي تحرسه يوم ودعها للالتحاق بالكلية العسكرية. حملتها إلى الضريح وقفت قبالة رأس الضريح نثرت حبات الرمل وهي تقول:

لا حاجة لي برمل ضريحك فلم تعد قدمي عبادي مغبرة بتراب مسيدك.

في طريق عودتها للبيت سمعت صرخات ثم تبعتها زغاريد نساء، فلقت سكون الطريق إلى نصفين.

تقافزت أمامها أيادي الأطفال و أصواتهم كل يشدها من طرف ثوبها لتسمعه عيونها أولا.

(حبوبه...حبوبه..البشارة..البشارة..البشارة. محاسن وضعت ولد).

٧

هل تريد قليلا من البحر؟

إن الجنـوبي لا يطمـئن إلـى اثنـين يـا سـيدي البحـر والمـرأة الكاذبة

سوف أتيك بالرمل منه

وتلاشى به الظل شيئا فشيئا فلم استبنه

هل تريد قليلا من الخمر؟

إن الجنوبي يا سيدي يتهيب شيئين

قنينة الخمر والآلة الحاسبة

سوف أتيك بالثلج منه

وتلاشى به الظل شيئا فشيئا فلم استبنه

بعدما لم أجد صاحبي

لم يعد واحد منهما لي بشي

هل تريد قليلا من الصبر؟

لا...

فالجنوبي يا سيدي يشتهي أن يكون الذي لم يكنـه. يشـتهي أن يلاقي اثنين

الحقيقة والأوجه الغائبة.

أمل دنقل.

٨

لم يعد الطاهر كما كان ذلك الأبنوسي فارع الطول. بدأ مقعدا على كرسي متحرك. كان يتوسط ساحة المسجد ويتجمع من حوله الصبية حيث كان منشغلا بنقش آيات القرآن على جدران قلوبهم حينما شاهد من مكانه طيف مريم وسمع ضحكاتها تتراقص حياله ورأى خصلات شعرها المتمردة حيث كانتا في انسجام تام، فكلما هبت الريح نثرت ضحكاتها في الأفق وزادتها ألقا و وضاءً وتطايرت خصلات شعرها في الهواء. حلقت روحها كملاك و تنقلت بين القبة والمسيد وشجرة (الهجليج). كان هو جالسا كشيخ وقور يكر في مسبحته وعيونه مغمضة. فجأة سمع صوتها منطلقا مع أصوات الصبية المرتلة للقرآن. فهو يعرف صوتها جيدا. يستطيع أن يميز نبرة صوتها من بين آلاف الأصوات. قال صدى صوتها:

الطاهر. إني مشتاقة إليك.

توقفت أصابعه عن سحب حبات المسبحة، فتح عيونه ليرى صورة وجهها بين أصوات الصبية. شعر الصبية بحركة عيونه تراقبهم فارتفعت حناجرهم بتلاوة القرآن، ضاع صوتها وسط جوقة الأصوات. أغمض عينيه مرة أخرى، عاد الصوت من جديد، كان هذه المرة أقرب و أوضح:

لم تجلس مكانك ولا تفعل شيئا؟!

خاف الطاهر أن يختفي صوتها مرة أخرى، أجاب وهو مغمض العينين:

كيف أنهض ونصفي تركته هناك في توريت؟

تطلعت فيه وقالت:

أعطني يدك؟ هيا أعطني يدك.

طاول يده لكي يطولها لم يقدر، رمى بروحه المعلقة بالمسبحة كطعم في بحر الأصوات و سحب صيده، علقت روحيهما بحبات المسبحة وطافتا حول القبة.

قالت:

كم هو غريب إنسان هذه البلاد؟

وقبل أن تنحل عقدة حاجبيه المعقودين دهشة أضافت:

أنت مثلا أبوك الخزين واحدا منهم، نشأت في الشمال بينهم، تتحدث لغتهم و تدين بدينهم مع ذلك فأنت ليس ألا جنوبي (جانقي) في نظرهم.

لا تتعجبي يا حبيبتي أنها أرض النيل والذهب والرجال، حتى هنالك بالجنوب و برغم جذوري الجنوبية ولوني الأبنوسي، ما أنا إلا (مندوكورو) آتى من الشمال.

خالي كور قال (لأني لا أتحدث لغتهم ولا أدين بدينهم ولا يخطط جبيني وشمهم). لذا فأنا لست واحدا منهم.

ضحك باستهزاء وقال:

على أية حال أنا أطلقت على نفسي اسم (جنوكورو).

رددها حتى تعلق في ذهنها:

نعم (جنوكورو) هذا الاسم يناسبني تماما. فهو يعبر عن حالتي.

لست وحدك أنا كذلك نشأت بالشمال لأم جنوبية و أب أجنبي ومع أني أتحدث لغتها، لم أكن في نظرهم يوما سوى فتاة شمالية؟!

تذكر الطاهر كلمات أبوه الشيخ. (يا المبروك كن كالحليب الأبيض داخل القدر الأسود).

غلى جوفه حينما تذكر ما حدث صرخ:

لكنهم أشعلوا النار ونسوا القدر عليها، فار الحليب وطمح و الشيطان وأولاده تعشوا ولم تنطفئ النار.

صوت مريم الهامس وهي تتلو هو الذي أطفأ نار جوفه:

المجد لله في الأعالي وبالناس المسرة وعلى الأرض السلام.

روحها أخبرته أن غرسه كوانين، ذلك الصبي الأسود الذي حلق بجناحيه كعصفور صغير يوم فك قيده في ساحة المدرسة، هاهو تخرج وصار معلما، تزوج وأنجب مريم أخرى.

سافرت روح الطاهر بعيدا مع طيف مريم الشفاف.

سقطت المسبحة من يده، فتح عينيه على حبات النوى المتطايرة في الهواء. انتهر الصبية فتمايلوا مع ألواحهم للأمام وللوراء مرتلين.

نفض الطاهر مسبحته من الرمل و أغمض عينيه كر طيفها من جديد ولكن روحها كانت قد تسربت من بين أصابعه وحبات المسبحة و حلقت عاليا عائده إلى عش الأرواح في غصن السماء. تطايرت حبات النوى مرة أخرى، سقط بعضها على كرسيه ذو العجلات. حدق مليا يتفحص الوجوه. علا صوت الصبية بلا انسجام وهم يتلون خلفه:

عمت الفوضى والغبار مع إشارة يده بالانصراف، إلا صبي في الخامسة بقي هناك يروي عطش الأباريق المصفوفة أسفل الجرار. أشار الطاهر للصبي بيده أن تعال، أتى الصبي مهرولا وهو يحاول مسح دموعه وما سال من أنفه بطرف كمه.

فتح الطاهر صدره مشرعا يديه لاحتضان الصبي وقال:

مرحبا حباب المبروك. ما يبكيك؟

قال الصبي بأنفاس باكية:

خليفة أبوي الشيخ. لم يناديني الأولاد باسم أمي.؟!

يا ألطاف الله. كأنه هو وكأنها أمه رضينا.

وما هو اسمك يا المبروك؟.

هدأت أنفاس الصبي قليلا وجفت دموعه، تاركة مجراها على خده المغبر و قال بصوت الفرح الطفولي وقد لمع نور السعادة خلف ستارة الدموع التي غطت عينيه قبل قليل:

اسمي. الطاهر ولد عبادي ولد عبد الله ولد الفكي حسين.

سقطت دمعة على رأس الصبي الأصلع من عيون خليفة الشيخ. مسح عليها خليفة الشيخ ولسانه يتلو المعوذتين.

تساءل الصبي:

لماذا يكرهونني؟

لم ينتظر جوابا من الشيخ:

وأنا أيضا لا أحبهم.

يا المبروك. الحب من شيم الكرام. فكن كريما وأسلك طريق القوم تلقى الهناء بالكوم.

أمي محاسن تقول. إن أبي عبادي سلك طريق الجند فهنئت روحه مع بنات الحور.

قال الصبي ذلك وعينه كانت على كرسي خليفة الشيخ ذي العجلات.

أراد له الطاهر خليفة الشيخ العلم اللدني، أراد الطاهر الصغير سلك طريق الجند، ورثة أبوه عبادي العسكرية.

ضحك الطاهر خليفة الشيخ و أمسك برأس الصبي بيديه مخاطبا عيونه الصغيرة قائلا:

كن ما شئت ولكن لا تشنق أحلامك على حبل الأماني وكن طاهر القلب حسن الروح. والآن هيا اتل لوحك.

تمت

شكر وتقدير

انـه لمـن الواجـب أن أتقـدم بالشـكر الجزيـل. شـكر العـاجز عـن التمـام لكل من سـاهم بـالفكرة أو الـرأي أو القدح أو المـدح أو عـدم الاكتـراث حتــي الـذي يبعـث علــي التحـدي واخـص بالشـكر تلـك الأيادي التي امتدت ورعتني بالاهتمام والتشجيع والمتابعة ليخرج هذا العمل بالصـورة الماثلـة أمـامكم. قليـل مـن يسـتطيع أن يسـتل مـا يجول في الصدور ويجعله يتراقص أمام الأعين وانتم كنتم أولئك القليل.

صـورة الغـلاف مـن مقتنيـات المتحـف البريطـاني. للملـك النـوبي تـهراقـا أو تـهارقـا ابـن الملـك بعـانخي (بعـانقي). ملـك مملكـة نبتـة حـوالي ٧٠٠عـام ق.م والـذي وصـلت حـدود مملكتـه إلــي فلسـطين وبلاد الشام وحتى حدود الإمبراطورية الرومانية.

جمال الدين علي الحاج

فهرس الكتاب